فؤاد التكرلي

غرباء

مختارات قصصية

الكتاب: غرباء (مختارات قصصية)

الكاتب: فؤاد التكرلي

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

التكرلي ، فؤاد

غرباء / فؤاد التكرلي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٢ ٥٠ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٥٢٤٦ / ٢٠١٧

غرباء





العيون الخضر

صفر القطار مرة ثالثة فأسرع البائع الصغير إلى باب العربة، وهو لا يزال يعلن عن بضاعته "علج. علج إنكليز. حب. جكليت. علج. علج بعشر فلوس. حب"

صاح به عريف في الجيش ضخم الجسم:

– انزل ولك. ما تخاف ليا خذك القطار؟

– متعلم عمي. علج إنكليز. حب. علج بعشر فلوس خاله.

كان يكلم شابة مكشوفة الوجه تجلس مع عجوز قرب باب العربة، وكان يأمل في بيع شيء لها. أملته نظرتها الطويلة إليه. كلمت الشابة العجوز:

– اشتريلي علج. باكيتين.

– جيب ولك مكرود باكتين علج إنكيز. بيش دتبيعه؟

– بعشر فلوس بيبي. والله خوش علج، مال انكليز.

– ندري ولك. انطيني باكيتين.

– تفضلي بيبي.

بدأت العربة تتحرك بعد قلقة بسيطة، فقفز البائع منها واختفى في الظلام. سار القطار نافثا بخاره الأبيض نحو السماء الصافية قسألت الشابة وهي تتناول العلك:

– هاي محطة باب الشيخ؟

– أي. انطيني شوية علج.

فناولت رفيقتها العجوز علبة.

كانتا في إحدى عربات الدرجة الثالثة، جالستين على مقعد قرب الباب وقد وضعنا فراشا ملفوفا وحقيبة على مقعد آخر وراءهما. مر أعرابي ذو لحية شعثاء قذرة فاستوقفه متاعهما:

– خالة ما تكدرون تسوولي مجان؟

أجابته العجوز بشراسة:

– ولي منا. إحنا كامشيها كلها

- لا تزعلين خالة.

- آني مو خالتك. الله ياخذ روحك.

- ياه، كفرنا يا ربع؟

ومضى يدفع الباب إلى العربة الأخرى. شعرت الشابة بارتياح لذهابه وأخذت تنظر إلى الجالسين معها. كانوا خليطا مدهشا، لا صلة بين أحدهم والآخر غير تلك المسحة القوية التي يخلفها الإرهاق الشديد وضغط الحياة المؤلم. جنود شكسون ذوو بشرة محترقة، أعراب ملتفون فوق أماكنهم بعباءاتهم الصوفية، أكراد في لباس متنافر جدا.

لم تستجب نفسها لتلك الصور المصفوفة أمامها. حدث لها يوما أن كرهت البشر أجمعين، كرهت رؤيتهم. رمت ببصرها خلال زجاج الشباك إلى الخارج. كان القمر بدرا يتوسط صفحة السماء، ويسبغ على الأرض لونا هادئا محببا، وكانت المناظر تركض أمام نظرها غير واضحة المعالم، وأنوار بغداد البعيدة تلمع كالجواهر الحمراء "بغداد، هم أحبها؟".

كانت عيناها واسعتين بأهداب سوداء طويلة. أغرقهما حزن موجع فتبللت أطرافهما بدموع لامعة. "إذا حبيت من دنياتي شيء، لازم أحب بغداد" وكان وجهها شاحبا، يزيد من شحوبه سواد عباءتها الرقيقة، ووجنتاها غائرتان تكون عظامها البارزة ظلين صغيرين على خدودها الصقلية. "إذا حبيت من دنياتي، دنياتي، دنياتي"، وكانت ذاهلة وهي تردد هذه الكلمة مع ضربات القطار المتكررة الرتيبة. "دنياتي ألما بيها معنى، معنى، لاكت منويدرى، يمكن كل الناس مثلي، مثلي. كحاب، كحاب، كحاب،كحاب" وكأنها استحت فأدرات رأسها إلى الداخل، رأت العريف يفتح مجلة "الاثنين" وينظر إليها هي من فوق المجلة. كان ضخما كثيف الشارب أسود البشرة. تطلعت إليه "لويديري آني شنو، حتى هذا يمكن جان يباوعني غير شكل"، أخفض بصره نحو المجلة فتركته إلى شاب يضع كوفيه بيضاء وعقالا أسود على رأسه. "وحشي. أشكد أذوني هالشكول. زمايل. وحوش" رفضت مرة، كانت لا تزال صغيرة آنذالك، أن تسمح أحدهما بالاتصال بها. لم تدر لماذا، لعلها كانت تحسب نفسها آدمية. كان عملاقا سكران منفتح الأوداج. رفسها في بطنها حتى أوشك أن يخرقها. ثم جرها من شعرها الأشقر القصير وخرج بها وهي تصرخ إلى صالة الدار فرماها القوادة "هاج، هاج بنتج. بلقابوس لو ما

لخطرج فلا أخليها تأخذ نفس. بربوك، مدا أدفع فلوس؟"، ثم تلقت بعد ذلك عقابها من القوادة. منعت عنها الأكل والشراب ثلاثة أيام. كادت تموت جوعا. وحجزتها في غرفة جرداء، لا سرير فيها ولا أي غطاء، في شتاء بارد، قارس البرد.

كانت صغيرة آنذاك، غريرة. عرفت بعد ذلك ما هي من الحياة وكيف يجب أن تعيش. خضوع مطلق، تجرد كامل من كل عاطفة، حتى المقت والتقزز "كل شيء إلا هذا، مكدرت ألا أكرهم، أموت منهم"، البشر جميعا، رجالا ونساء، رجالا ونساء.

سمعت العجوز تكلمها:

– سليمة رح أنام آتي عيني بمكان متاعنا. تعبانة يمة هواية.

– زين.

فقامت العجوز ووضعت الفراش والحقيبة فوق رف عال ثم التفت بعباءتها وسكنت.

كان جو العربة مملوءا بدخان السكاير الرخيصة، وكان بعض الركاب قد تسلقوا رفوف الأمتعة وانحشروا عليها محاولين النوم. بكى

طفل عن يسارها فالتفتت. رأت كردية شابة ممصوصة الوجه خائفة النظرات وهي تضع في فم طفلها ثديا ككيس اللبن اليابس. "مثل هاذي هم ما كدرت أصير"، كانت عجمية الأصل، جلبها أبوها من كرمنشاه إلى خانقين.

ساروا الطريق كلها مشيا على الأقدام. سيرا مستمرا حثيثا غير منقطع. كان يهجل أمامهم، هي وأمها وأخيها، ولم يكن يبدو عليه أنه سيقف في أي مكان. تركها في خانقين خادمة عند بعضهم. ظنت أنها سترتاح هناك، لكنه رجع إليها بعد أشهر، وأخذها من مأواها سائر بها مرة أخرى. كانا وحيدين هذه المرة. ماتت أمها وانهزم أخوها، لكنه كالسباق لم تظهر عليه رغبة في التوقف؛ ووصلا بغداد ثم انطلقا منها إلى كربلاء، سارا هذه المسافة كلها ولم تمرض إلا في كربلاء. كان مرض موت أو شبيها به، فتركها في الجامع في غرفة صاحب له، ومضى إلى حيث لم تره قط.

"لوميته ذال الوكت، لويش بقيتني ياربي" وشفيت. كانت في الرابعة عشرة أو حوالي ذلك، نحيلة عجفاء قصيرة. ولم تمض أشهر حتى تزوجها هذا الصاحب الذي يملك غرفة في الجامع. ذهب بها إلى شيخ معمم أخافها ثم عاد إلى غرفته فاغتصبها ليلا وهي مغمى

عليها. لاتزال تتذكر صورته كالكابوس المميت، أعور أصلع طويل القامة مفتول العضل. وبعد ذلك.. بعد ذلك تزوجها كثيرون. كانت تباع وتشتري، وكانت تراقب الأمر كانها لا تعلم لها دخلا في الموضوع. "مصوني. أكلوا لحم أفادي". فتح العريف شباكا قريبا منه فاندفعت نسمة أرجفتها فظهر الاستياء على وجهها. "حيوان" خاطبته:

– من فضلك سده. الهواكلش بارد.

فأسرع يغلقه دون كلمة عاد إلى مجلته. "لويش فكه لعد؟" وانكفأت إلى الشباك مرة أخرى. كانت الأرض فضية اللون، والسماء ناعمة جميلة تنتشر عليها النجوم قرب الأفق. أضواء بغداد الصفراء،كانت تكون عالما بعيدا سعيدا. "شكد حبيتها لبغداد! حتى عذابها حلو"

– من فضلج التكت

فزعت. كان الواقف فوق رأسها يحدجها بتمعن، مفتش البطاقات:

– البطاقة بلا زحمة

أخرجت له بطاقتين من حقيبة يدها فثقبها بمقص وانصرف عنها.

"كركوك. كركوك بعد بغداد. قسمتي. لومه هالشرطة الله لا يرضي عليهم جان آني هسه ابغداد. منعوا الأكو، والماكو، ولومه الله يصخيها لباجيتي حسيبة وادزلي مكتوب من كركوك اتكولي تعاى، جان درت رأسي؟" سمعت المفتش يكلم العريف:

– شنو هاي عريف؟

– هاي بطاقة مال رجعة.

فقلب المفتش قطعة من الورق صغيرة جدا حائلة ليس عليها أثر يدل من بعيد أنها كانت بطاقة للذهاب والإياب.

– هاي بطاقتيش عريف؟

– والله بالبيت غسلوها ويه لهدوم بلا حسي.

تركه المفتش قائلا إلى الشرطي وراءه:

– شوف شغلك عطية.

وابتعد. اقترب عطية من العريف:

– عريف، لازم تقطع بطاقة.

فبدت الحيرة على وجه العريف:

– والله يابه أني أكص. لكن المسألة..

ومد يده إلى جيب في صدره:

– المسألة آني ما عندي غير ميه.. ميتيتن فلس.

– شنوياب؟

– اكمش شواربك

فرفع العريف يده بتردد وأمسك بطرف شاربه، فاستمر الشرطي:

– أدكص من جلولاء. من يوكف القطار أنت تنزل ادكص، وآني ممنون.

– ممنون.

وفتح المجلة بعد أن نظر إلى سليمة. "بومة الخرايب. مال نتف شوارب. كل الرياجيل مال نتف شوارب"، سمعت شخيرا فظنته أول وهلة يصدر عن رفيقتها العجوز، لكنها انتبهت إلى كردي أحمر الوجه

مدروره ينام منكمشا على مقعد بجانبها إلى الخلف. أحسست بانزعاج حين رأته.

كـان فمـه مفتوحـا بعـض الشـيء وشـفته السـفلى منزلقـة إلـى الأسفل. "أوف" لكم سهرت الليل بجانب مخلوقات مثل هذا "إيه، منويصدك.. منويصدك"، قوي انزعاجها وتركز في قلبها بشكل مؤلم. كان ذلك الكردي النائم، لباسه الأزرق المخطط بالارجواني الغامق وخصلات شعره السوداء المطلة من عمامته وأنفه المقوس ذو الشعيرات وشاربه الكث المتدلى على جانبي فمه المفتوح وجسمه الممتلئ كجسم الجاموس، رمزا قاسيا عنيف القسوة لكل قبح يمكن أن يرى في رجل. "زمال. لويش نايم؟" فاضت دموعها وهي تنظر إليه. كانت محتدة متوترة الأعصاب هائجة النفس محطمة القلب. ولو لم تدر رأسها عنه لتعض على منديلها الصغير بقوة خانقة عبرة حارة وجهشة مريعة، لقامت تلطمه بكلتي يديها وهي تبكي وتبكي وتبكي حتى تموت بكاء. "ما أريد هالدنيا. ماأريد هالدنيا ربي". "ما أريد هالدنيا".. وقرضت منديلها الحريري بين أسنانها.

كانت ترابيس القطار توالي حركاتها المتتابعة، والعربة تهتز هزات متصلة. لم يرها أحد وهي تخفض يدها بالمنديل لتخفيه تحت

عباءتها. لم يلتفت إليها، حتى العريف الطاووس، وهي أطراف عينيها بأنامل مدورة بديعة. كانت في عالم قصي؛ عالم لا تجد فيه غير نفسها، خيالها الضعيف المتهاوي. كانت مستسلمة بكل جارحة فيها، ساكنة سكون من لا يستطيع الصراخ. وكانت ذاهلة مثل كل ليلة، حين يشبع منها الرجال ويتركونها بمفردها. ذهول مخيف. غياب عن الدنيا بأسرها. لم تكن تفكر في شيء. كانت كالصخرة تلقي في ماء عميق فتستقر دون صوت على القعر. وحيدة في كون موحش، منعزلة في قوقعة ضيقة.

وقف القطار. عرت بوقوفه شعورا ضئيلا، فقام بعضهم وفتح الباب قربها ثم ظهر شرطي وذهب مختفيا داخل العربة. لم ترفع وجهها عن الشباك. زجاجة الرقراق والبطاح الواسعة المضاءة بالقمر، أرض بيضاء كالرماد على الجمرات الخابية، والأفق أسود دامس السواد لا يصل إليه نور. سواد حبيب. تخليت لو كان يغمرها، لو فيه حية. وتراءت لعينها صورة وجهها منعكسة على الزجاج.

صورة صفراء شاحبة لمعالم ناحلة متعبة. أدهشها تعبير اليأس في عينيها المخضلتين. يأس من الحياة ومن الموت. جزعت وأرادت أن تجد أيضا ما يعزيها ويبعث فيهاالأمل، فصدمها الانطباع المرير

المنبعث عن شفتيها اليابستين المنطبقتين. مرارة ويأس، مرارة ويأس. "كل مايسوون. لازم أموت بالتالي، أموت أرتاح. أخلص من كل شيء. من كل شيء"، بدات أفكاها وكلماتها تتكرر مع خبطات القطار المندفع بسرعة، سار ولم تحس به "موحقي أترك كل شيء؟ لو باقية شهر بلا شغل، جان متت من الجوع. به حقي أجوز من كل شيء. حقي أجوز وأياس" سمعت العريف يتكلم:

– شوف أخوية.

فالتفت.

– شوف أخوية.

كان يهز الكردي النائم:

– أنت وين تروح؟

ففتح الكردي عينين حمراوين:

– ها؟ شاكو؟

– وين توصل؟

– لويش بابا؟

– إذا تريد تروح لبعكوبة تره راح نوصلها بعد شوية.

– لا بابا. آني رايح طوز.

فتراجع العريف إلى مكانه.

– نام خويه لعد.

فعاد الكردي بهدوء إلى نومه. "بعكوبة"، هاي ولايته.. هاي ولايته" بدا الاسم كاللحن الحزين العزيز. كانت في حياتها نغمة أليفة يثيرها هذا الاسم. لم تستطع صبرا والتفتت إلى العريف:

– من فضلك سيد، شوكت نوصلها؟

فأخفض المجلة مندهشا:

– شنهي؟

– بعكوبة.

– بعد ثلث ساعة لا والله.

نظرا إلى ساعته:

– بعد عشر دقائق، خمسة. ما أدري والله بالضبط، لاكت من نوصل اكلج، أنا شايفها من كبل.

– أي بالله بلا زحمة.

– ممنون.

"بعكوبة"! كان ذلك منذ سنة. "لا والله أكثر. مو الصيف الفات، قبله". كانت تشتغل في بيت بالباب الشرقي، وحيدة ليس معها غير هذه العجوز وقواد أو اثنين. وكان لها جماعات خاصة تزورها في أوقات غير معينة. لم يكن هو بين هؤلاء المترددين، جاء صدفة. "جانوا خمسة وياه" في إحدى ليالي الصيف بعد منتصف الليل. كانت الدار ساكنة مختنقة الهواء والمروحة وتدور بسرعة. "تعبانة جنت، تعبانة كلش جنت"، وكانت مع زبون كان يبدو أنه آخر من سيطرق الباب. "هو شافني أول ما طلعت من الكبة"، كان شابا في الثالثة والعشرين، طويلا رشيقا ذا هندام لطيف.

واجهها بابتسامة حلوة هادئة حين أول خروجها. "هالو" فابتسمت له ومضت إلى الحمام. كان ككل أصحابه، طالب لذة

عابرة. "لا والله مو مثلهم، مو مثلهم" رجعت بعد دقائق فجلست على كرسي أمامهم.

كانوا على كنبة مقابلة لها وقد بدا عليهم أنهم أعجبوا بها. لمعت نظراتهم يقترب منها أول الأمر. "تعبانة كلش جنت" قام هو فجأة فقعد قربها.

– تعبانة؟ أحجي الصدك.

فالتفتت إليه لامعة العينين:

– لويش؟

بهرته عيناها الخضر اوان وظهر ذلك على وجهه:

– سبحان الله، هاي شنو هالعيون هاي!

فأغمضتها مرات متظاهرة بالخوف:

– شبيها؟ حولة؟

فداعبها.

– لا، رجاء لا تحجين عليها غلط. تره بديت أحبها.

وبقـي يحـدق فيهـا. شـعرت بميـل لمحادثتـه. كـان يـتكلم دون تكلف وبصوت لين دافئ.

– منين أنتي؟ سليمة اسمج مو؟

هزت رأسها فانتبه إلى خصلات شعرها الأصفر القصيرة ووضع يده على خده. كانت في وجهه مسحة من الرقة. عيناه تشعان لطفا صادقا كعيني الطفل. "عيونه! شلون عيون" لم تر عطفا شديدا مؤثر ينبعث من عينين مثل عينيه غير أن أحد أصدقائه قطع عليه الحلم اللذيذ.

– مو وكت غزل أنعل مذهبك. اتفضلي عيني سليمة ويايه.

قامت دون أن تنظر إليه. "شجان ديريد مني؟" لم يدخل معها تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها. كان يأتي مع أصدقائه بين أسبوع آخر فيقضي بضع دقائق في الحديث معها. كلمات لم تألفها من أحد. لم تكن غزلا أو ما أشبه. كان يحب عينيها فيقول لها ذلك ببساطة لا تدع لها مجالا لتتصور أنه يتغزل بها، وكان يعطف عليها ويريد لها بإخلاص حياة سعيدة. "جان ينقهر من يشوفني مخبوصة، عيني عليه"، حدث مرة أن أقبل بمفرده في عصر أحد الأيام. كان

مجيئه غير مناسب ولا يمكن أن يستساغ. لم يخطر له ذلك وجلس يحدثها.

- سليمة، حياتج أهم شيء حاولي أن تبتعدي عن هذا الجو.. هذي البيئة النكسة.

ظنت أنه يريدها أن تنهزم معه وأنه يحبها، فخيب هذا الظن فيها:

- لو أجج جان تزوجتج دون تردد:

- فلم يعجبها ذلك منه، وسألته:

- يعني بس تريد تحجي ويايه؟

- واتمعن بخضار عيونج.

لم يكن ذلك أمرا مفهوما، لكنها بدأت تميل إليه هي أيضا. "حجاياته الحلوة" فيها سحر غامض، وما هو غير ود حقيقي. ومع ذلك طلبت منه برفق إلا يأتي دون أن يفعل شيئا، ففهم ما ترمي إليه وانقطع فترة. لم تتصور أثره عليها. كانت، حين تكاد أن تسقط أرضا فتسعى إلى الفراش كالجثة السائرة لترمي بنفسها عليه، تتمنى لو كان

معها يحدثها كيف تعني بحياتها. وكانت، عندما تنهض من النوم وتجلس لتفطر، تتذكر تلك الروح التي تحنو عليها.

لكنها لم تفهم لماذا لا يتصل بها، هل كانت تعوز النقود؟ كان موظفا في بعقوبة وراتبه غير قليل "لعد معقولة جان ديريد يضحك على ويقشمرني؟، كما قالت رفيقتها العجوز وأيدها الصانعان ؟ "لا كت لويش يقشمرني؟ شيريد مني؟"، وعاد إليها مع أصدقائه بعد أسبوعين أو أكثر، في ساعة متأخرة من الليل. "كلشي ما أريد منج" لم يكلمها تلك الليلة سوى كلمات قليلة رقيقة. أرادت أن تعرف عنه شيئا، فسألت أصدقاءه الذين دخلوا معها. موظف في محكمة بعقوبة، ليس له غير أم عجوز. "ممتزوج؟"، "لا ع، وداعتج" "ماخطب؟" "لا ع" "لعد لويش ميدخل ويايه؟" "والله آني ما أدري ياعيوني، ليش ما تخشين أنت وياه؟" فجاملت صديقه وضحكت مكرهة.

صفر القطار صفيرا متقطعا، فقال العريف:

– وصلنا بعكوبة. هذا جسر ديالي.

كانوا يمرون على جسر، فارتفعت ضوضاء ملأت جو العربة.

"فد يوم، فد يوم بعيد، من تشوفين نفسج وحيدة، محد يسأل عنج ولايباوع بوجهج، تعالي لبعكوبة سئلي عني" كلام جميل.

تثاقل القطار في حركاته ثم دخل المحطة المضيئة فتجاوبت في أذنها نداءات البائعين:

– بيض. أبيض وبيض. لفة أبيض وبيض.

– علاوات تمر. ضوك واشتري، ضوك واشتري.

– فرتقال. فرتقال. فرتقال، فرتقال.

كلا. ليس لها أدنى حق في النفكير به. طردته شر طردة. أتاها ليلة مع أصدقائه، كانت متألمة النفس ممزقة الفؤاد. لم ينقطع عنها سيل الرجال. رجال، رجال، رجال. منذ العصر حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

كانت رؤية الرجال وحدها كافية آنذاك لتحدث لها أو جاعا هائلة في عواطفها. ابتسم لها فلم تجبه وسألت بخشونة عمن يدخل معها. تناولها أحد أصدقائه وذهب بها، ثم دخل معها الآخر وتبعه الثالث. كان ينظر إليها تروح وتجيء بشفقة ورقة مؤثرتين. لكنها

كانت حانقة على الدنيا كلها. كانت تصر بأسنانها كلما رأته ينظر إليها. كانت تريد أن تحطم الكون، وكانت تريد أن تقضي على نفسها قبل هذا الكون.

وعندما أراد الخروج بسكون مع أصدقائه صرخت فيه:

- تعال. متريد فلوس على كوادتك؟ خوش جماعات دجيب لي.

يعني تستاهل.. يعني تستاهل..

وخنقتها الدموع فأجهشت بالبكاء لكنها بقيت تصرخ بأعلى صوت:

- اطلع برة. لتجي بعد. شكو عندك هنا؟؟ ها؟ شكو عندك؟ شعليك مني؟ شعليك مني؟ آني كحبة، كحبة، أنت شنو؟؟

وقف مصفر الوجه ذاهلا مبهوتا. كانت تراه خلال دموعها الفائضة وهو يترك الدار محاولا إسكات أصدقائه السكاري المتذمرين، ولم تقع عينها عليه بعد ذلك.

كانت صورتها في الزجاج شاحبة تعبر عن يأس من الحياة ومن الموت، وحين تحرك القطار بعد ربع ساعة من الوقوف وهب الهواء

البارد على وجهها فلعب بعبائتها الرقيقة السوداء، خطر لها أنها تترك "بعقوبة" خلفها. نظرت إلى الخارج. كانت الأرض مترامية موحشة رمادية، والسماء رحيبة ذات لون شفاف. "دنياتي الما بيها معنى" وكان القطار يشق طريقه مندسا في طيات الظلام الناعمة، مندفعا نحو أفق بعيد مجهول.

بعقوبة ١٩٥٠

غرباء

امتلأت الجهة الشرقية من السماء لحظة بخط متعرج لامع كجذر الشجرة، ثم انهمر المطر بشدة فسمع لوقعه على الأرض المبللة خفقا رتيبا غالب ضجة الشارع وطغي عليها. كان ينتظر تحت سقف موقف الباص ورذاذ الماء البارد يضرب وجهه بين وقت وآخر. وكان يشعر ببهجة تداخله وهو يتطلع إلى المطر وإلى الشارع اللامع ووجوه المنتظرين قربه. لم يحمل معه المعطف حين غادر المكان، وقد تمنى لو فعل ذلك كي يحفظ دفتره الأسود من التلف. كانت رسالتها في داخله ولم يكن محتملا أن يصلها المطر.

كانوا حوله مهتمين بمراقبة المطر المتساقط بغزارة، الشيخ الثرثار ورفيقه الصامت والشابة الملونة الوجه وفتاتها السمينة. جمتعهم سقيفة الباص الحمراء والخوف من البلل، وكانوا يتبادلون النظرات خلسة فيما بينهم لم يسعهم ألا يشعر أحدهم بوجود الآخرين، ولم يتغلبوا على خجلهم الطبيعي فيتفحصون رفاقهم بصورة مباشرة، وهكذا كل الأمور هنا. تذكر وقفة على سطحية الأتوبيس في باريس، والمطر

ينهمر مدرارا وقربه بعض الأشخاص الصامتين. كان الهواء معطرا باردا، وكان يحس أنهم - قربة - لا يشعرون بوجوده بينهم، وأنهم ضد هذا الوجود وضد وجود كل واحد بين الآخر. كان ذلك تأدبا واحتراما، ولم يشعر آنذاك بانزعاج منه.

يمع الفتاة الصغيرة المليئة الجسم تكلم أمها:

- ماما، بردانة. شوكت يجي الباص؟

فانحنت عليها المرأة الملونة ورفعت ياقة ثوبها ثم همست في أذنها كلاما مبهما بلهجة حنونة. تطلعت إليه الفتاة الصغيرة وفي عينيها شكوى وعدم تصديق. كانت في السادسة من عمرها، ذات عينين مدورتين واسعتين. ابتسم لها ابتسامة خفيفة فرمشت أجفانها وانصرفت بنظرها عنه. هذه االمخلوقات الصغيرة الرقيقة لها مشاعر وردود فعل متشابهة في كل مكان. لم تزل نفوسهم لم يفارقها الصفاء، لم تمازجها عقد الضغينة والتهديم والابتلاع. كان الأطفال الفرنسيون هكذا. كأنهم نزلوا من السماء الصافية وليس من عروق آبائهم النتنة. كان ذلك الطفل يلاحقهما بحياء في "فرساي" حين كان يلتقط لها صورا. يقف قربه ويداه خلف ظهره وعلي فمه ابتسامة لا معني لها، فيمنعه من كل مشروع. وكانت مولعة بكل طفل، لكنها امتعضت حين

رأت هذا المخلوق الفضولي اللطيف يأخذ قسما من انتباهه عنها وهتفت بغير حياء "ولكن هذا غير محتمل"، واضطرا أن ينسحبا بسرعة، وبقي الطفل يرقبهما وعلى فمه تلك الابتسامة التي لا معني لها ومن وراءه السجادة الخضراء. كأنه فقاعة ذهبية فوق غابة الخضرة. ولم ينسه وهو في وقفته تلك. لقد أفسد مزاجها ولكنه آنسه ولعب بقلبه. وهي تذكره في رسالتها برحلتهما هذه القصيرة.

رأى الباص يشق ماء الشارع ويتجه نحو سقيفتهم بدون صوت. كان سطحه مغسولا ولونه الأحمر لامعا، وكانت ضجة المطر تسكت ضوضاءه. اقترب منهم ووقف ثم انفتح الباب بضربة سريعة. اندفعت المرأة الملونة وصغيرتها نحو درجات السلم الحديدي دون انتظار لحادث آخر، وارتمى الشيخ باستماتة مفاجئة خلف المرأة وقد بدت على وجهه أمارات فزع مجهول السبب. كانت المرأة قد أمسكت بالصغيرة أمامها ودفعتها لتصعد حينما ظهر أول راكب يريد النزول وحينما هتف الجابي يوقفهما لكيلا تتقدما. وخلال لحظات بقي الجابي والراكب النازل والمرأة والصغيرة والشيخ وصاحبه ينظر كل منهم في عيني الآخر عله يرى نقطة ضعف يمكنه بها أن ينهي الموقف الحرج. كان المطر يتساقط بخفة على الوجوه المتصلبة المرفوعة إلى

الأعلى باستسلام، ولاحظ شخصا ينزل من الباص بحركات عنيفة مخترقا جمع المنتظرين الصغير وراكضا نحو السقيفة. لم يتأخر أكثر من ذلك وسار نحو باب الباص، ثم ارتقى الدرجات المنخفضة فشم رائحة الملابس المبللة وصدمه ظهر الشيخ الذي وقف ساداً عليه الطريق. لم يفهم أول الأمر سبب هذه الوقفة الشاذة، وسمع الباب تصفق من خلفه بعنف. كانت قطرات من المطر تعكس الضوء فوق أنفه وأجفانه وشعره، فرفع يده ومسحها ثم اتكأ بذراعه وكتفه على الباب بعد أن أحس بحركة الباص. لم يتحرك الشيخ من موضعه، وانتبه إلى المرأة وصغيرتها تسدان الممر، فقرر أن يحتفظ بمكانه قرب الباب.

اعتاد أن يتمتع بمناظر الطريق حين يكون في سيارة. وخلال سنواته الأربع في باريس لم يهمل هذه العادة الجميلة. كان يفضل ركوب الأتوبيس المبهج على لانحشار في سراديب المترو، لكن المناظر الآن غير تلك التي كانت تمر عليه وهو على السطحية الخلفية للأتوبيس. إن كل شيء، البنابات والمخازن والناس، يبدو مهلهلا باليا حائلا. حتى الألوان الصارخة الجديدة تكشف عن سماجة في الذوق. وكل هذه المظاهر تفضح خفايا البشر هنا، خفايا عواطفهم

وآمالهم ومشاريعهم وحتى بعض أفكارهم. إلا أنه أليف إلى هذه المجالي رغم ما يحاول من نكران. أليف إليها ألف مرة. وماذا يجديه ألا يحبها؟

لقد سافر إلى باريس وهو يعتقد أنه لن يعود إلى هذه الديار، لن يضع بصره عليها مرة أخرى. كان آنذاك متألما كارها البشر، كارها حظه ودنياه. وعاش في تلك المدينة العزيزة المخبولة متخبطا حائرا تارة، وسيدا متذوقا لمتع الحياة تارة أخرى. ولم ينس هذه المباني الخربة المهلهلة ولا ناسها الضائعين الساذجين. ولكنه لا يريد أن يحبها، لا يريد أن يكون قطعة منها وأن تكون جزءا من حياته.

كان الباص يسير مندفعا منحدرا من قمة جبل، ولم يفهم سر هذه العجلة، وكان المطر على تساقطه وهو يضرب زجاج الباب أمامه ضربات شديدة ملحة. سرته ذكرى باريس، وابتسم لنفسه. أنه يفارقها إلا منذ أسابيع، لكن ذكراها تأتيه كل ساعات النهار. وراح يسترجع حوادث اليوم الذي غادر فيه باريس، حينما أحس بالنظرات تكاد تخرق رأسه. هناك شخص يركز عليه نظره الحاد، ولم يبال بما شعر. إنهم الفضوليون الخجلون دائما. لو استدار لما عثر على العينين السلتين تحدقان به هكذا وهو ملتفت عنها. ستنهزم، هاتان العينان

النجهولتان، وستدفن نفسها في الظلمات السوداء. وانتبه إلى تشتت فكره وضياع سلسلة الحوادث التى بذل جهده ليمسك بها. ما استخف هذا الأمر! والتفت بسرعة نحو الجالسين. لابد أن يكبسها، وكانت هناك تبرق بين الوجوه. أذهلته نار تلك العينين وتأججهما، وخطر له لحظة أن تهرب قبل أن يهلك. كانت جالسة في المقعد الثاني ترتدي ثيابا رمادية غامقة. لم تعجل بالانحراف بنظرها عنه، وخيل إليه أن العينين الواسعتين النافذتين تمتلئان بدفق لامع من ماء رقراق. بقي ينظر إليها وهي تميل ببصرها عنه إلى الشيخ الثرثار.

كانت الغضون تحيط بفمها وشفتيها الحائلتين وكان أنفها المدور لامعا. لم تضع أصباغا في وجهها الطويل ولم يبد على شعرها أنه مشط باعتناء كاف. كأنها خرجت للقائه في هذا اليوم المطير! لعلها علمت أن لديه ما يقوله لها. وكان ينظر إلى الخارج باهتمام دون أن يميز خطوط البنايات. لم خطر بباله منذ عاد إلى بغداد إلا الآن، وكان ذلك عقوقا منه. ولم تفارق ذهنه خلال أشهره الأخيرة في باريس، وكان ذلك فشلا مريعا طالما آذاه. بدأت صورتها في أسعد ساعاتهما، تسكن ذهنه في تلك الأيام، حين أخذ يفتقد إنسانية تلك المرأة في باريس. اعتاد، بالرغم منه، أن يضعهما معا دون أن يدرك ما

نتيجة كل هذا. وخرج خلال أشهر بفساد العلاقة الجدية الوحيدة التي عقدها مع تلك المرأة الباريسية. أخذ يفتقد فيها الخجل الأنثوي والصراحة غير المقصودة والماضي الأبيض المضمون والفناء في شخصه. وكانت الأخرى البعيدة كالشبح، تراقب أفكاره وأدق مشاعره.

وقف الباص وقفة مفاجئة فقام بضعة أشخاص ينزلون. اضطر أن ينحشر في زاوية قرب الباب، ونظر إليها مرة مرتين. لبثت جالسة وعلى وجهها جمود غير معتاد ولم توجه إلى ناحيته بصرها. أحس أنها منزعجة من وجوده معها في الباص ولم يسره ذلك رغم كل شيء. فرغتبعض المقاعد فاحلتها الواقفون بسرعة ووجد نفسه حين سار الباص أنه الواقف الوحيد. كان أمام أنظار جميع الجالسين، فلم يرتح لذلك وسار بخطوات حذرة فاتخذ له مكانا خلف كرسيها. لم تلتفت ولم تراقبه. كان يرى قسما من جبهتها وأنفها وخدها الأيسر وشعرها المضطرب. لا حظها تقلص فمها وتقرض شفتها السفلي بحركة خفيفة، وكانت تمسك حقيبتها بيديها الاثنتين وتصعها في حجرها. لعلها منزعجة من رؤيته معها في نفس المكان، إلا أنه لم يشعر أنه مسؤول عن ذلك أو أن عليه أن يشاركها انزعاجها هذا. رأى، خلال

لفات شعرها الأسود، شعيرات بيضاء متوهجة فركز نظره عليها. تملكه، وهو يكتشف خطوط الشيب الملتوية في رأسها، ذهول عميق. كانت ماضيا حزينا، لا يبدو أنه سيستطيع تذكره دون عطف. لعل علاقته الحقيقة هي بهذه الخطوط البيضاء. إنها بقايا حياته وحياتها. مدت يدها، كأنها هجست نظراته، فأمرت بها على جبهتها وشعرها بحركة سريعة. لم يرها تضع خاتما،وكانت أصابعها نحيلة قصيرة الأظافر. لن يعود إليها شيء. لقد مرت بالحياة مرورا واحدا لا رجعه فيه ولا تكرار. إلا هو، انه لا يزال يدير العجلة ويربط نفسه، بتشبث الأعمى المقيت، إلى هذه اللعبة التي لا معنى لها.

وقف الباص وقفة أخرى فدفعه أحد المارين إلى جانب ومضى. فرغ كرسي قربه فرمي بجسمه عليه. شعر بارتياح وهو يسند ظهره على الحشية اللينة وراءه. أتبعته دقائق الوقوف كما لم يتعبه أي سير طويل. نظر إليها عن يمينه. كانت على وضعها السابق، ووجهها الجانبي أمامه. لم يكن يبدو عليها قط أنها ترى أحدا أو شيئا ما، وكان خط حاجبها أسود رفيعا وياقة ثوبها زرقاء مخيفة تحت الشعر. ليتها تعلم ما يخفي في ذهنه. لقد عاشت مرة واحدة، ويبدو أنها كانت تعلم ذلك. أما هو فلا يهمه كثيرا لماذا وكيفيعيش الآن. أدار نظره

نحـو الخـارج. كانـت إشـعاعات الشـمس المحتجبـة تختـرق الغيـوم السوداء، وخطوط المطر تنحرف في سقوطها مع مهب الريح. لم يترك باريس مختارا ولم يجبره أحد على ذلك. كانت حياته هناك مع تلك الباريسية المبهجة، هي كل ما حلم به حين سافر بغداد. إنها السعادة التـي نعتقـد أننـا نراهـا فـي الآخـرين، ولكنهـا ليسـت علـى نفـس هـذا الإشـراق حـين نعيشـها مـن الـداخل. تـذكر ذلـك المسـاء فـي الصـيف الماضي حين أوصلها إلى بيتها عند منتصف الليل. نزلا في نهاية خط المترو في محطة "بورت دوتاي" وسارا في "بولفار سيشه" وهو يمسك يدها.

كانت السماء صاحية سوداء مخملية تنبض بالنجوم، والقمر في جهة منها أبيض متلئلئا، وكانت أصابعها ناعمة حارة. لم يرد أن يصلا بيتها فانعطفا إلى مقهى صغير. كـان صـامتا تـدور فـي صـدره مشـاعر غامضـة لـم يألفهـا مـن قبـل. إنهـا سعادته ولكنهـا بغيـر طعـم ولا معنـى، وكانت حائرة تجهل خفايا هذه النفس الآتية من الشرق، ولم تقل شيئا. وخرجا من المقهى واتجها نحو "أفتى مارشال ليوتي"، وكان يشم روائح الليـل في الهـواء البـارد مخلوطة بعطرها الخفيـف. وحين وصـلا حيـث تسـكن فاجـأه ضـيق شـديد وانعقـد لسـانه، فودعهـا صـامتا ومضـى فـي

طريقه. شعر باعياء يتملكه وهو يخطو بعيدا عن بيتها وكان بوده أن يبكي. لقد عرف خلال ذلك المساء أنه لا يستطيع أن يبني أية سعادة له هنا. كان غريبا عن هذه الفتاة رغم العشرة الطويلة، ولم يكن يفهم سبب وجوده في باريس.

كانت تقلص شفتيها وتشد على حقيبتها، وكان الانزعاج باديا على وجهها. خطر له أنه بعد سنواته تلك في باريس، وبعد أن ذاق الأمرين من نفسه ومن الآخرين ومن العالم كله، انتهى إلى الفكرة التي قالتها له قبل أن يفرق بينهما الطلاق.. إنه يحاول أن يخلق أوهامه. هل هي بعيدة النظر إلى هذه الدرجة؟ وكيف تأتي لها أن تفهمه خلال عشرة لم تدم غير خمس سنوات؟ كانت بسيطة واثقة من نفسها ومن آرائها، ولم تتعود إلا في الأشهر الأخيرة من حياتهما فكرة سيادته عليها. وكانت متأخرة في ذلك، متأخرة جدا. ورأى في وجهها الكابي لون عيشتهما حين كان ابنهما لا يزال على قيد الحياة. كان عدوين لدودين مربوطين بإحكام إلى بعضهما، وكانت تفتش عن كل من يهدم من شخصه، وكان يكرهها بعنف. ولم تهمهما سمعتهما، وتنازعا وتقاتلا، وكانا يلهثان ساعات وأياما وأسابيع، ولم يبد له الخلاص ممكنا. شعر بنفسه يقرض أسنانه وهو ينظر إليها.

عادت إليه انفعالات الحقد في تذكره بعض ماضيه معها. وكان وجهها كابيا، كابيا؛ يضفي ثوبها الرمادي عليه سحنة قاتمة، وكانت شفتاها يابستين لا لون فيهما. لم تكن تفهم شيئا آنذاك، ولقد تملكه الشك كثيرا في أنه يتصرف كإنسان متحضر. ومات ابنهما فجأة، ذوت روحه في طوفان هذا الحقد الأسود. حين كان يقف فوق القبر والناس يقذفون بالتراب على التابوت الصغير، أدراك أنه يدفن حياته الزوجية مع جدث ابنه. وأدركت هي ذلك أيضا وانتهى كل شيء فيما بينهما.

أحس بشيء في فكيه. إن لديه مايقول لها، ولا يمكن أن يتحاشى ذلك. التفت إليها. كانت تنظر إليه، كانت متجهة بعينيها الغامضتين إليه.

لم يلمح فيهما معنى ما أو عاطفة أو شعورا، وكانتا كالحجرين الأسودين النفاذين. خيل إليه لحظة أن عالم المرئيات ينسحب من حوله ليتركز في هاتين البئرين العميقتين. كانت الغضون القاتمة تحيط بعينيها وتنغرس حول فمها، وكانت شفتاها تنتفضان بحركات خفيفة. لم يرتح لنظرتها النارية اللامجدية، وشعر أنه يجب أن يدهش من تصرفها هذا. ألم تكفها سنوات معاناتهما الماضية؟

وتراءى له خلف لمعان الدموع في عينيها وما وراء غضون وجهها القاتمة، وانتفاضات شفتيها، معنى من معاني العطف والفهم والإحساس بالمشاركة الوجدانية. هل أدركت بنظرها الحديد إلى وجهة تلك الكلمات الحزينة التي كان يخفيها في أعماقه ليقولها لها؟ هل علمت بوضوح لا إنساني، أن أفكارها قد صحت عنه، وأنه ذلك الخائب الذي لا رجاء فيه؟

كان مضطربا منزعجا، يحس ضعفا وتفككا في أعضاء جسمه. ولم تحول بصرها عنه إلا لتقوم من مكانهم بحركة قاطعة فتقصد باب الباص المفتوحة وتنزل الدرجات ثم تختفي عن عينيه.

لبث في مكانه مسحورا دائخا. لم ينتبه إلى وقوف السيارة ولم يدر ماذا فقد بذهابها. نظر إلى النافذة قربه، ثم رفع يده المرتجفة فمسح وجهه.

كان الزجاج شفافا تلوثه لطخ مبهمة. رأى من خلاله تهاطل المطر والغيوم البيضاء المشعة، وكان الباص يسير على أرض الشارع الوعرة فيهزه هزات متصلة. سمع ضجة الجالسين معه وخطر له أنه ينسى المكان الذي يقصده.

ماذا خرج يعمل في هذا اليوم المطير؟

كان بوده أن ينفرد بها ساعة من الزمن فيحدثها دون مرارة عما جرى له. إنه لم يفهم من الحياة عناصر جدية مهمة، ولم تكن هي محقة كل الحق.

وكان بوده أن يعلم منها أنهما قد استفاد من أحزانهما التي اشتركا فيها، وأن يشرح لها معنى أن يكتشف المرء أن أعز ما لديه، هواء باريس المعطر وأزهار "فرساي" يعود العالم ليس باستطاعته هو الدخول إليه. ولكن، هل ستفهم منه شيئا؟ هل سيكون بمقدورها أن تعيش شقاءه وأن تتذوق مرارة انغلاق الباب للمرة الثانية؟ من يدري، من يدري، سيقول لها إنه لم يعرفها أول وهلة، وأنه دهش لما بدا عليها من تغير. وسيقول لها كم آلمه أن يرى خطوط الشيب في شعرها. أحس بوقوف الباص إحساسا غامضا.

لماذا لا يحاول شيئا؟ إن تحقق هذه الجلسة الصميمية معها قد يعني الكثير، الكثير. لعله يستطيع الإخلاق بها لو نزل الآن. لم يكن هادئ القلب حين لامست الريح الباردة وجهه وضربته قطرات المطر الخفيفة. ارتقى الرصيف وعاد يسير بخطوات سريعة وهو يضم الدفتر

الأسود إلى صدره. لم ير امرأة أو شخصيا ما على مبعدة منه وداخله الشك في العثور عليها. أيمكن أن تختفي خلال هذا الوقت القصير؟

برقت السماء لحظات فوصلها بالأرض ضياء باهر، ثم انهمر رشاش المطر بموجات متعاقبة يلعب بها الهواء العاصف. كان حائرا غير واثق مما يريد، وكان يخشى أن تسيء الظن به وتفتح في نفسه جراحا مندملة. بقي محافظا على سيره السريع، وقد خلا ذهنه من أية فكرة، وكانت عيناه القلقتان تلاحقان هيئات السائرين من بعيد.

موعد النار

رأى رفاقه الخمسة يختفون عند وصولهم الجسر. لبثوا يسيرون ببطء، واحدا إثر الآخر، على مرتفع السكة، والشمس الغاربة تزيد في مظهر بؤسهم، حتى وصلوا كوة الحارس فتوقفوا عندها لحظات ثم اندفعوا عابرين وتوارت أرديتهم وراء سياج الجسر. اضطر أن ينتظر هبوط الظلام كي يخوض خلسة نهر ديالي إلى الجهة الأخرى. أخبروه أن الماء غير عميق وأن جميع الرفاق الذين لا يملكون جواز سفر قد خاضوه قبله. وبعد هذا النهر ستمتد الطريق أمامهم إلى الكاظمية مستقيمة مستوية، وسيكون من الهين أن تقطع سيرا على الأقدام، حيث لا شرطة تطاردهم أو تعترض سبيلهم.

كان جالسا على حجر كبير تحت جدار بستان، فارشا كفية في حجره عليها عدد من قطع الخبز الجاف وبضع ثمرات يابسات. وكان المساء كئيبا أسود في هذه البلاد الغريبة ذات النخيل. كل أمسياته ولياليه كانت كئيبة تقلق فؤداه. ومنذ أن ترك ورفاقه "كرمنشاه" لم يشعر بمثل الوحشة التي انتابته حين دخل حدود العراق. ومع أن بعض

الإيرانيين الأشرار لم يتخلوا عن طبيعتهم الخبيثة تجاههم، فإن آثار قبضاتهم على وجهه ورأسه لم تكن قط مؤذية مهينة مثل ضربة ذلك الأعرابي.

خرج إليهم وصار يكلمهم كأنهم ملك له ولآبائه، ولم يستطع أن يغصب شيئا منهم، لكنهم حصلوا على آثار رضية مختلفة في أجسامهم من "جماعة" الغليظ. كانت ليالي باردة قاتلة، ولولا رفاقه الطيبون ما استطاع أن يسير كل هذه المسافة بين "قصر شيرين" والنهر في ستة أيام. أخبرهم "علي أصغر" أمس أنه وصل ضريح الكاظمين مرة بأقل من شهر، وأضاف أنهم سيصلون هذه المرة في عشرين يوما. ولم يعلم "عبد الرضا" أيتكلم "علي أصغر" عن أمور يمكن أن تحدث، أم أن سيجارتي الأفيون التي دخنها قبل ذلك، قد فتحت له آفاق المستحيل فأخذ يحدثهم عنها.

سمع ضجة عن يسارة ثم رأى قطارا يقترب بسرعة نافخا دخانه الأبيض نحو السماء. كان البخار يندفع منه، ومكائنه ضخمة جبارة، لو أمكنه التعلق بهذا القطار الهائل لوصل مفترق الطرق قبلهم. قالوا إنهم سينتظرونه في مفترق طرق خلف الجسر، وسيشعلون نارا ليتهدي بها إليهم.

مر القطار أمامه هادرا هازا الأرض بعنف، فقام من مكانه ولم خبزه وتمره ثم سار بمحاذاة الجدار الطيني. كان فمه يابسا تحرقه حلاوة التمر الذي أكله قبل قليل، وكان الألم في عضلات رجليه وظهره يزداد كلما قعد فترة يستريح. تطلع إلى السماء. كانت زرقاء فسيحة والشمس وراء أشجار البساتين لا تزال أشعتها تحمر سياج الجسر. أحس عطشا وتذكر أنه لم يشرب الماء منذ الصباح. شغلهم الاقتراب من "بعقوبة" ومحاولة تجنب مراكز الشرطة. خطر له أن يذهب إلى شاطئ النهر فيغتسل ثم يروي ظمأه، فأغذ الخطى.

كانت البساتين على جانبه كثيفة الأشجار، ترتفع نخلات منها حتى تمس قممها أشعة الشمس الذهبية. جذبت عينيه خلال ثلمات الجدار نقاط لامعة فتوقف يتمعن داخل البستان. كانت الأشجار قاتمة الخضرة تتلألأ بين أغصانها عشرات من البرتقال الأصفر، والأرض منخفضة عن الطريق مغطاة بالحشيش والأوراق اجافة. نظر باتجاه النهر فلم ير إلا الطريق الملتفة التي لا تنتهي، فعاد يتملى من رؤية أشجار البستان. كانت هائلة العدد متشابكة الأغصان، وبعض السواقي الضيقة تتلوى فيما بينها. رأى الماء يجري في ساقيه غير بعيدة عنه، ماء أبيض رقراق جميل، تتوثب مويجاته عند المنعطفات.

كأنه ماء من السماء. تلك الأعرابية الجميلة التي رآها قبل أيام، كانت تجلس على ساقية مثل هذه. لم تفزع حين أقبل نحوها ولمعت عيناها السوداوان الجريئتان، ولم تفهم لغته، وكان جسمها حارا يبعث الحياة. لكن الرفاق أخبروه بعد ذلك كم كان خطرا فعله، رغن أنهم لم يصدقوا حرفا مما قاله. كانت أوراق الشجر خضراء تنحني نحو الأرض والبرتقال أحمر يضيء فيما بينها. لعب لسانه في فمه فعادت إليه حرقة التمر. تمنى لو أمسك إحدى هذه البرتقالات الثقيلات بالماء، لقشرها إذن ولامتص عصيرها البارد الحلو.

نظر حواليه، ثم رمى كفيته وعصاه خلف الجدار، وصدرت عن أقدامه خشخشة لا تسمع وآلمته عضلات فخذيه حين انحنى ورفع أشياءه وسار بلهفة يتوغل في البستان. كانت الأرض رخوة تستجيب لوطء حذائه البالي، وكانت الأغصان تضرب غطاء رأسه وتخدش وجهه. قتم النور بسرعة فلم يعد يستطيع تمييز موقع خطواته بسهولة، وخيل إليه بعد فترة أنه يسمع حركة قريبة فتوقف منقطع النفس. خطر له أن يعود إلى الساقية القريبة من الجدار. كانت الأشجار ساكنة تمد أذرعها كالأشباح، والهواء رطبا ثقيلا، ماذا سيحل به؟ لم يطرق سمعه صوت وشعر بالخوف يدب إليه، فتلمس الأرض بعصاه وتابع مسيره منحني الظهر.

عثر على ساقية بعد خطوات فقعد حالا على كثب منها تحت شجرة برتقال. ماذا سيحل به لو فاجأه أصحاب البستان، وحوش هذه الأرض الغريبة؟ تحس حافة الساقية بعد قليل فشعر بالماء يمس أصابعه المرتجفة.

أزاح بعض الأوراق الجافة الطافية ثم جرف الماء بكلتا يديه وحلمه إلى فمه. كان ذا طعم جميل، باردا كماء الينابيع في جبال إيران. شرب مرة أخرى وأخرى، ثم غسل وجهه ويديه محاذرا ممقتصدا حركاته. كانت شجرة البرتقال منحنية عيله وأغصانها تمس حافة رقبته. رأى عدة برتقالات غير ناضجة في متناول يده فقطف واحدة منها. لم يكن مذاقها عذبا وشعر بقشرها يحرق جوانب فمه فرماها بعيدا.

يكفيه في كل الأحوال أن يروي ظمأه وأن يعلم بوجود البرتقال الحلو الأصفر في البستان. تراجع في جلسته حتى استند إلى جذع الشجرة بظهره. آلمته النتوءات البارزة الحادة، إلا أنه لم يرفع ظهره المتعب ومدد ساقيه بطولهما أمامه، كان الجو مشبعا برائحة الماء، وبعض النسائم الخريفية الباردة تمر على وجهه. لعل الرفاق الآن قد

وصلوا مفترق الطرق. ترى هل سينتظرونه هناك؟ وهل سيشعلون نارا ؟ أم أنهم سينكرونه في اللحظة الأخيرة؟

لكن "علي أصغر" كان قد أحبه وآثره على الآخرين، وبيد "علي أصغر" قيادة الرفاق، لأنه أكبرهم سنا. لحيته الرمادية منسدلة على صدره ومسبحته الطويلة لا تفارق يده. لقد أحبه لأنهما من بلدة واحدة "كرمنشاه"، وحكي له الكثير عن سفراته إلى الكاظمية والنجف وكربلاء.

في الكاظمية، حيث سيصلون بالتأكيد بعد عشرة أيام، يوجد ضريح الإمام الكاظم. هناك منائر من الذهب تلمع من بعيد وتسطع تحت نور الشمس. منائر عالية مدفونة رؤوسها في السحاب، كلها من الذهب الخالص، تلمسها فتلمس الذهب.

كان الظلام يتكاثف في البستان سريعا، لم تعد عيناه تريان غير الأغصان القريبة من وجهه وغير بعض الضوء في الساقية، والسكون تكامل بعد أن صمتت العصافير إثر غياب الشمس. لم يتمتع بجلسة كهذه منذ أن رأى الأعربية، كان يشعر برغبة في البقاء هنا إلى الأبد. كانت كحيلة العينين جريئة لا تعرف كلمة من لغته، قال لها "سلام

عليكم" فلم تحببه، وقال: "فرسي فهمي ديش؟ فلم تحبه. آه وكم كان جسدها أبيض مشتعلا، لكنها تركته وفرت، ولم يصدقه الرفاق.

أطبق عينيه فشعر بوحشته يخف وطوءها. هذه الليلة سيبزغ القمر متأخرا، ولن يساعده على توضيح معالم الطريق، لأنه سيقوم الآن ويترك بستانه هذه ليخوض النهر.. ليخوض النهر.. ويخوض النهر حتى يصل الجهة الأخرى، حيث ينتظره رفاقه الطيبون قرب وهج النار المرتفع. يشعلون نارا تسطع في الليل.. في الليل كمنائر الكاظمين.. كمائر الكاظمين الذهبية اللامعة. هناك ينتظرونه قرب نيرانهم الطيبة التي تلمع كمنائر الكاظمين.. المنائر الذهبية اللامعة.

لم يكن الظلام كثيفا حينما فتح عينيه. كان القمر ناشرا ضياءه على الأرض والأشجار والساقية، والهواء يتلاعب بين الأغصان ويحرك أوراقها. لم يعلم أول وهلة أين ينام، وشعر بقشعريرة تسري خلال جسمه كله، هل فاته الوقت؟

كانت أطرافه متثلجة وعظام ظهره تؤلمه بشدة. أمسك بكفيته وعصاه وزحف بضع خطوات ثم قام يسير. كان رأسه دائخا وجسمه متثاقلا متراخيا، وكان الجو حوله موحشا لم يخفف من وحشته ضوء القمر. سمع أثناء سيره أصوات أغصان جافة تتكسر خلفه، فثبت في

مكانه. كان قلبه يدق أضلاعه بعنف وسرعة، وعضلات ساقية متصلة، ناذا سيحل به؟

أراد أن يدير نظره. فخشي أن تحدث عظامه صوتا ما. هل يسعى صاحب البستان إليه؟ يسعى إليه للفتك به؟ وانتبه إلى لعصا ترتجف في يده. ماذا يعمل؟ وصرخ في داخله صوت مجنون يدعوه للفرار، للركض بأقصى سرعة، للنجاة فاندفع مذعورا خلال الأغصان الواخزة شاعرا بوحش هائل يطارده.

كانت الأرض تسحب قدميه إليها فيجرها بكل قوته وينتشلها الأيدي المتشبثة، وكانت عصاه وكفيته ترتطمان بالجذوع دون إرادته. سمع رغم ضجة ركضة أغصانا جافة تتكسر خلفه، كانت الظلال أمامه تخفيه كالموت وكان يقفز كلما فاجأة ضوء القمر. هل سيقضون عليه؟ وكان يحس بقوة خارقة شيطانية تمسك بجسمه وتدفعه كلمخبول نحو الجدار.

رأي ساقية أمامه ورأى خلفها الجدار الطيني وثملته التي اجتازها قبل ساعات. خطوات قليلة أخرى ويأمن على حياته؛ وشعر أنه سينجو، فاجتاز الساقية، ثم رمي كفتيه وعصاه وراء السور وتسلق الأحجار التي خيل إليه شيئا ما يسيطر عليه، فضغط أسنانه بكل قوته

وكتم تأوهاته وصرخاته الحيوانية. ثم سكن لحظة، وشعر بنفسه يستطيع أن يريد أمرا ما. ألم يوقف ارتجافه فكيفه ؟ رأي كفيته وعصاه على مبعدة منه، فأمسك بالكفية وأفرغ محتوياتها ثم طواها مرات ووضعها فوق الجرح. لم يشعر بألمه يزيد وعادت أسنانه تقرض بعضها. سيحاول أن يقوم الآن.

كان أسفله مطموسا في نار لاهبة تأكله بشراهة وباستمرار. تناول عصاه واتكأ بها على الأرض ثم رفع رأسه وجذعه الأعلى قليلا. شعر بأنفسه تتقطع، فلبث لحظات يستنشق الهواء ملء رئتيه. كيف سيمكنه أن يسير، أن يعبر النهر وأن يصل نار الرفاق؟ خطر له أن يحرك ساقيه. كان قلبه ينتفض في صدره، وعندما انقلب على جهته اليسرى انزلقت العصا على التراب وتهاوى متمددا على ظهره.

سكنت الدنيا حوله مرة أخرى، وفرغ عالمه من كل شيء إلا الألم. لم يكن فاقدا مشاعره بصورة تطفئ احتراقه، وكان جسمه ثقل جسمه يضغط على الجرح فيحس بفؤاده يختنق. عاد إليه الارتجاف والصراخ الحيواني وكان يحرك رأسه حركات هستيرية سريعة ويضرب الأرض براحة يده الطليقة.

ومضت هنيهات قبل أن يدرك وجود العصا في يده، فعصرها بقوة واتكأ عليها مرة أخرى ثم انقلب ببطء على بطنه. كانت ساقه اليسرى لا تزال معه، فثناها إليه واستند على ركبته وعصاه ثم رفع جذعه. ارتجف العصا بشدة تحت ثقل جسمه فاستند على ذراعه اليسرى. سمع صرخاته كأنها تأتي من بعيد، وكان انتباهه موجها نحو ساقه اليمنى. تحسس الجرح فوجد دماءه لا تزال تسيل، وكانت ثيابه ملوثة بالتراب والطين. أنزل راجته وأخذ يضغط على فخذه الأيمن فلم تستجب أعصابه واشتد ألمه. ها قد فقد ساقه اليمنى وعليه الآن أن يعبر النهر ويسير إلى رفاقه بساق واحدة. أمسكت حنجرته جهشة حارة فاضت من صدره. . وبكي. لولا هذا الألم، آه.. لولا هذا الألم.

قطعت بكاءه قشعريرة عنيفة اخترقت جسده. ليس أمامه سوى أن يزحف نحو الشاطئ. لا يمكنه أن يفكر بشيء آخر. كانت الطريق إلى يساره مضاءة ضيقة ذات ظلال، تنحصر بين مرتفع السكة وجدران البساتين، ولم يكن قادرا على رؤية الشاطئ. استدر قليلا ثم توقف. لفتت نظره على الأرض بقعتان سوداوان داكنتان. هذه دماوه. شعر بعاطفة غريبة نحو تلك القطعة من التراب. إن عليها من ذات نفسه شيئا عظيما. ولكنه سيتركها تجف هنا تحت الشمس القاسية وسيستمر في سيره نحو النهر.

هناك سينزل يخوض مياهه التي لن تتجاوز ركبتيه إلا بمسافة قصيرة كما أكد له الرفاق. كان مدخل الطلقة بين أعلى إليته اليمنى وأسفل ظهره، وكان يهمه أن يشعر أن المياه لن تصل جرحه. وهذه الرصاصة المستقرة في جوفه، سيحملها إلى رفاقه، ولن يصدقوا، لن يصدقوا.

أمسك بعصاه قويا ثم استوى واقفا مركزا ثقله على رجله اليسرى ثم جر ساقه الميتة متكئا على العصا، وخطا إلى الامام.

كان الألم يشتد عليه كلما اعتدل ليسحب ساقه اليمنى، وكان يصرخ ويعصر العصا بيديه الاثنتين. شعر بعد بضع أمتار ببوادر غيبوبة تنتابه. هل سيموت قبل أن يرى الشاطئ.. قبل أن يرى نار الرفاق أذرعتهم المرحبة وضريح الكاظمين؟ كانت أنفاسه سريعة مضطربة وقلبه مرتجفا؛ وكانت الطريقة مستوية غير مستقيمة وكل شيء هادئا في البساتين المجاورة. لم يصل الألم إلى فكره، وبقى متيقظا مراقبا جميع حركات جسمه. كانت العصا تضرب الأرض فيصدر عنها صوت مكتوم، ثم يسمع حذاءه الأيمن ينسحب على التراب شاخرا كأنفاس المحتضر. لم تكمل الطريق كما خمنها وانحدرت نحو الشاطئ. وحين وقف على حافة المنحدر الأسود، مس الهواء البارد

وجهه المغطى بالعرق وانفتح الأفق أمام عينيه. كان الجرف المقابل ظلاما مبهما لا أثر فيه لضوء أو نار، وكانت مياه النهر تلمع تحته من بعيد وتعكس أشعة القمر. لم يستطيع تمييز السبيل إلى النهر خلال المنحدر.

انحنى قليلا مستندا على ركبته اليسرى وأخذ يضرب الأرض أمامه بالعصا. لم يكن يرى إلا حجارة متراكمة مختلطة ببعضها، وخيل إليه أن الانحدار ليس شديدا كما بدا له، وقد يمكنه أن ينزل بسلام. قام من ركعته، وكان يسمع لانفاسه الثقيلة صوتا موحشا، فمد قدمه بخشية وتهجس ووضعها على صخرة كبيرة فاحصا ثباتها، ولم يطمئن. لو وقع لمات في الحال. كان الألم ينهش لحمه وأعصابه، وأحس أثناء وقوفه بالدم يسيل على ساقه ببطء حتى يصل قدمه. أن تتألم شيء آخر غير أن تموت.

وبدأت العصا ترتجف تحت ثقل جسمه، وكان قلبه ينبض بقوة حينا ويتلاشي نبضه حينا آخر. أن تموت، أن تفارق هذه الأرض وأحياءها.

وسيطر عليه إحساس بأن جسمه ينهار ويتخاذل. هكذا تألم الحسين الشهيد. ولم يكن ميتا حين كان يتألم، بل كان بين أهله ورفاقه.

رأى جسمه يميل ويميل، ثم خطا خطوة مجنونة نحو الصخرة الكبيرة. لم يدرك ماذا أراد، ولم يرد مطلقا ما فعل. وأفلتته الصخرة بسرعة وشعر قبل أن يغيب عن صوابه بلطمة خلف رأسه وبالأرض الصلدة تسلخ جرحه وتمزق اللحم حواليه.

لا، لم يكن حيا. لم يستجب لآهاته الرب أو الحياة. كان منطرحا على الساحل الرملي يستمع إلى مياه النهر تهمهم بهدوء قرب أذنيه، وكان وجهه نحو السماء البغبراء وعيناه لا تريان نجومها.

كشفت له يقظته عالما جديدا من الألم واليأس. خيل إليه أول وهلة أن الثلج يغمره من كل جانب، لما عدل رقبته الملوية واستعان بقوة أخيرة ليرفع جذعه، لم يستطيع تقدير الحد الذي بلغته مياه النهر من جسمه. كان رأسه يطن طنينا متواصلا، وكانت صرخاته وطقطقة أسنانه أول ما نبهه إلى بقائه حيا.

لم يقدر على التماسك طويلا وانهد جذعه على الأرض مرة أخرى. أرابته حركة المياه الغريبة، فوضع عصاه جانبا وتحسس بيده المكان فطمست أصابعه في ماء النهر البارد. لم يفهم شيئا مما نقلته إليه حواسه، ولفتت نظره سيارة مضاءة تسير عاليا على الجسر. كان يرتجف بصورة مرعبة لم يعهدها. كان فكره مضطربا عاجزا عن ربط

مواضيع ادراكه ببعضها. رأى القمر في جانب من السماء، أصفر لا يضيء. عاد إلى الإمساك بعصاه، فوجد قسما منها غارقا في النهر. ماذا يجري له؟ ورأى سيارة أخرى تسير ببطء على الجسر العالي ثم تتوقف قريبا من نهايته.

كانت تشع بالنور، تبدو وكأنها معلقة في الهواء. سمع أصوات أشخاص يتكلمون ويشعلون ضوءا. لم يفهم لغتهم، وفي لحظة خاطفة لمع في ذهنه المتبلد إدراك كامل لحالته. الرصاصة والدماء والنهر والرفاق،. . آه.. الرفاق، والمواعد ومنائر الكاظمية. توقف ارتجافه حالا، أوقفته قوة لا تحدس وأخذ يصغي إلى الأصوات البعيدة. أهم أعدائه المتوحشين؟ إنه لا يفهم لغته، ولكنها تخفيه في هذا الليل الأسود. ورفاقه؟ ماذا حل بهم وبنارهم؟ وبموعدهم معه؟

تشبث بعصاه رافعا إياها بعنف ثم اتكأ عليها ورفع رأسه وجذعه.

ولم يتمن الموت رغم الألم الهائل، وكان خائفا. وجد الماء يغمر رجليه وفخذيه فانحدر خائضا فيه بهدوء. صار ينقل قدميه ببطء معتمدا على عصاه، وكان يشعر بقاع النهر لزجا وببرودة المياه تصل قريبا من نهاية فخذيه، أحس بقلق أنه لم يرد مافعل.

سمع صوت السيارة فوقه تتحرك ورأى انعكاسات الضوء في الماء تتلاشى. كان القمر على حافة الأفق شاحبا مكسور الإطار والنهر أسود مهمهما، ولم يكن أمامه غير الظلمة وغير قاع مجهول لا يؤتمن.

شعر أن خوفه من ميتة شنيعة على أيدي هؤلاء المتوحشين، هو الذي دفع به عنيفا للقاء رفاقه. وكان يعلم أنه قد قبل رؤيتهم، لمن الشك لم يساوره في لقياهم لو استطاع أن يتغلب على النهر والألم وكان يحس بقوة غامضة تستخدم جسده فتحيل البرد والألم والانهيار إلى أمور لا معنى لها.

توقف متهجسا حينما شعر بالماء تزداد سرعته. كان الظلام يحتويه، لا تشقه إلا أضواء الجسر الضئيلة، ولم يستطع أن يتميز خطوط الشاطئ المقابل. هل سيصل؟ وعاود مسيره.

بدت له هذه الفكرة تافهة لا تدل على شيء، لأنه، بكل كيانه، لم يكن يفهم معنى أن يعود أو أن يموت. كانت أرجله تمس القاع ثقيلة كأنها ليست له، وكان جسمه الطامس في الماء متثلجا متخدرا. سمع فوق الجسر ضجة كبيرة ورأى انعكاسات حمراء على صفحة النهر. كان الماء يصطفق برتابة والهواء يضرب وجهه وعنقه باستمرار.

شعر بالبرودة تتصاعد إلى الأعلى قليلا إثر كل خطوة قصيرة يخطوها. لم يخطر هذا بباله تغمره المياه وتخنقه، بعد كل شيء، بسكون. وبقي يخوض قابضا بشدة بشدة على عصاه. أتراهم أخطأوا حين ظنوا النهر قريب القاع؟

كانت أنفاسه ثقيلة وكان يحس بالضعف يدب في يديه المرتجفتين. لا يمكنه أن يتوقف مطلقا. بدأ الدوار في رأسه يشل حركاته ويخمد نظره.

سيتلقونه بفرح أخوي حار وسيغسلون جراحه ويمنحون جسمه المرتجف الفء، وسيبكون معه، سيبكون معه.

وصل الماء منطقة ألمه فأحس ببرودة أطفأت بعض ناره. لم يفكر فيما يفعل لو لبثت المياه ترتفع. سيغرق، لاشيء آخر. واستمر يسير متحسسا بعصاه قاع النهر اللزج. كان الشاطئ المقابل مبهما لا تنيره أضوية الجسر، القمر قد اختفى وراء أشجار البساتين، وكان كل شيء حوله هادئا ميتا.

لم يتضح في ذهنه المشوش معنى أن تغمر المياه وأن يغرق، ولم يكن يرى أبعد من خطوتين أمامه. أن يفنى، ألا يستطيع رؤية "علي

أصغر" وبقية الرفاق. وكان يحس في أعماقه، بعيدا عن الألم والبرد، سكونا وتبلدا يعزلانه عن عالم جسده التعيس.

أيقظه على غير انتظار اصطدام عصاه بحجر أمامه فتوقف متهجسا منتبها. كان الهواء باردا، يمر على ملابسه المبللة فيحيلها ثلجا. ميزت عيناه المكدودتان، على النور الشاحب، حد المياه لا يبلغ إلا أسفل ركبتيه. هل انحسر الماء هكذا ولم يشعر به؟ أهو الشاطئ إذن؟ أهو الشاطئ؟

سمع صوتا مخنوقا يصدر عن ارتطام عصاه بالأرض، فتحامل على نفسه وجر بقية جسمه حتى أخرجه من الماء ثم انطرح لاهثا على الساحل الرملي. كان يحس فرحة اغرقت آلامه كلها، وكان ينظر إلى السماء الشفافة وقد غمرها فيض من النور لم يعرف مصدره. أراد أن يتنفس ملء رئتيه، ملء رئتيه، وكان قلبه ثقيلا متراجف النبضات ولم يستطع تحريك جسده المنهار. هكذا يتكوم على الشاطئ ورفاقه يشعلون نارهم المستعرة على مبعدة أمتار منه، أمتار ليس غير. رأى هيكل الجسر العالي، ضخما قويا، تنبسط السماء فوقه فسيجة بيضاء. ثم التفت إلى النهر فلم يميز شاطئه البعيد. كانت مبلولة ملطخة بحمرة شاحبة. وأي قدمه اليسرى عالية من الحذاء، ويديه

صفراوين مرتجفتين. أحس بوحشة تمسكه وعاوده الألم في موضع الإصابة. كانت الأرض على الجهة الأخرى تمتد مرتفعة بضعة أمتار، والسماء متلألئة كالزجاج. لم يبق عليه إلا اجتياز هذه التلال، وأحس بالخدر يدب في أجفانه.

ازداد عليه الألم واشتد البرد، وعادت أسنانه تضرب بعضها البعض.

رأى أشخاصا يتحركون ببطء على الجسر وسمع أصواتهم يتحدثون. لم يفهم لغة كلامهم، وبقي ينصت إلى المقاطع الغريبة هنيهات قبل أن تنبعث فيه الشرارة. أدرك الخطر كما يدركه الحيوان، فاتكأ بكوعسه ورفع جذعه عن الأرض، ثم أراد أن يثني ساقه اليسرى فلم يستطع فانقلب على جنبه وأمسك بالعصا. كانت ثيابه تنفصل عن جسمه ثم تعود وتلتصق عليه، وكان الجرح يشتعل في لحمه كالسيخ. أتعبته حركته فتوقف يسحب الأنفاس من قلبه.

خطر له أنه قد يكون حالما، قد يكون مامر عليه كابوسا مريعا. لعله الآن في بيته، مع أمه وأخوته، ينام في فراشه الدافئ ويحلم بزيارة الكاظمية. زكان في استماعه إلى زفيره وشهيقه المتقطعين وفي تحديقه في ذراعيه المتشنجين لا يدرك الحاجز بين أفكاره وواقعه. وعرض

عليه "علي أصغر" المجيء معهم لزيارة ضريح الإمام الكاظم فقبل غير متردد. لم يكن أبسط من ذلك الأمر، أن تسير حتى تصل، ولابد أن تصل مادمت تسير.

أحس توقفا في نبضات قلبه وانتابته قشعريرة قوية. رأى أصابعه تقبض على العصا؛ فتذكر أنه مدعو ليسير ويسير. انقلب كالخشبة على بطنه، وبذل جهدا خارقا حتى استطاع أن يستند راكعا على ركبتيه وراحتيه. تقطعت أنفاسه لحظة. لاحظ جلد ذراعيه يرتجف بصورة غريبة.

كانت ثيابه مصبوغة بحمرة حائلة، متهدلة مبللة يقطر منها الماء. شعر أنه يجب أن يتحرك دون أن يعلم، وأخذ يزحف على أطرافه منصتا إلى أصوات صدره الجوفاء. لم تستطيع رقبته حمل رأسه الثقيل فتدلي نحو الأرض. كان يحس بدمه الدافئ يفيض من الجرح ويسيل على جسمه بين الجلد البارد والثياب المبللة. لا تزال في جدثه دماء إذن. لا يزال بوسعه أن يعيش إذن، لا يزال يعيش إذن. وكانت أجفانه مسدلة، لكنه استطاع أن يتهجس الأرض بأصابعه وركبتيه وهي ترتفع أمامه، ولم يفتح عينيه. ماذا يجديه أن يرى؟ ماذا

يمكن أن يرى؟ لم تعد للنتائج؟ أهمية ما، ولم يعد يفهم أنه يحيا ألا لأنه يريد أن يسير سيرا كئيبا مؤلما لا متناهيا.

انبحس الهواء عن قلبه بغتة فثبت في مكانه. شعر بما يشبه يدا تقبض على حنجرته وتعصرها، فرفع رأسه وتحسس الرقبة المتشنجة. لم يجد غير الجلد الخشن وغضاريف الحنجرة البارزة. وكان قلبه يرف باضطراب تحت ضغط اليد القاسية. أخافه شيء مجهول يحيطه في الظلام ففتح عينيه بسرعة كان الضوء ساطعا والشمس تملأ السماء. رأى الأرض تنبسط حتى الأفق، بيضاء خالية. تنفس بعمق هواء الصباح البارد وأخذ يفرك عضلات رقبته وصدره. شعر بأشعة الشمس تبعث فيه ثقة لا معنى لها. كان مرتفع السكة الحديدية، على بعد أمتار من جهته اليمنى، يمنع عنه رؤية الطريق. لم يشاهد إنسانا، مخلوقا ما، تحت السماء العريضة الوضاءة، وكان الألم في نوباته المستمرة يخز قلبه ويضع بين العالم وحواسه حجابا تزداد كثافته.

خيل إليه أنه يسمع ضجة من بعيد، صراخا وهتافات ثم نداء طويلا يجيبه الأفق بصداه الأجواف. كانت الأرض تحته منقعة بماء ثيابه، وكان يشعر برغبة في التبول. لم تكن الأصوات لشخص واحد بل كانت مختلطة غامضة لا تميز مقاطعها. كالضجة التي يحدثها

أصـحابه حـين سـيرهم لـيلا، يتكلمـون سـوية دون أن يصـغي أحـدهم للآخر.

أدار بصره ناحية المرتفع. لم ير غير أشباح باهتة تضطرب. كان رأسـه ثقـيلا وعلـى عينيـه المكـدودتين غشـاوة سـميكة. مـن تـراهم يكونون؟ أبقي على هذه الأرض الموحشة حي يعرفه؟ خيل إليه أنه يرى الأشباح تتحرك وتقترب منه. لم تكن في نظره قوة تستطيع أن تجعله يؤمن بما ينقل إليه.

كانوا ثلاثة، يرتدون ملابس غامقة ويضعون أغطية على رؤوسهم. أهم أصحابه، ورفاقه؟ شعر بجسده ينكمش ورفع بصره نحوهم عاليا. لعلهم قلقوا لتأخره فجاءوا ينشدون مساعدته. أقبلوا إليه مع الشمس لينقذوه، ليحتضنونه بين أذرعهم الحارة. سمع صرخة حيوانية تنفجر منه، من قلبه، من كيانه؛ وأخذ يزحف بسرعة مجنونة نحو المرتفع.

كانت الأرض تخدش أطرافه المتحركة كأرجل العنكبوت، وكان يحس بصدره ضيقا خاليا من الهواء. لم يتمثل في ذهنه غير صورة أصدقائه ووجوههم العزيزة، وكان يصرخ بفرح لا يعرفه البشر ويدفع التراب المغطى بالملح فيترك عليه أثرا من دمائه. بدا له مرتفع السكة لا ينتهي، ولم يرَ إلا الخطوة القصيرة التي تمتد أمامه دائما إلا أنه شعر بعد فترة باستواء الأرض تحت ركبتيه.

سكن لحظات وهو يلهث ويبلل شفتيه الجافتين بلسانه عبثا. رأى منهم ظلالهم أول الأمر. كانوا يقفون فوق رأسه على مبعدة مترين أو أقل وكانت أحذيتهم سوداء تلمع كنصل الخنجر. رفع نظره إليهم. لم يرهم جيدا وكان يحس تخاذلا وقوة مبهمة تدفعه بإلحاح نحو المنحدر. كانت وجوهم صفراء محلوقة شديدة الشحوب، وعلى رؤوسهم سدائر الخاكي تتوسطها النجمة الذهبية.

تطلع إليهم صامتا مذهولا. لم يفهم ماذا تعني نظراتهم المميتة إليهم، ولماذا يجثو هكذا بامتهان أمامهم وكان مرتبكا حائر. ومرت هنيهات، ولم يدرك كيف أحس بخمود شيء ما في نفسه، في أعماق نفسه البائسة. كأن عروقه فرغت من دمها الحار، كأنه تلاشى من العالم وصار عدما أسود.

وتقبضت أصابعه على حفنة من تراب واندفعت الجهشة من فمه قبل أن يستسلم لتلك القوة العمياء التي ترمي به نحو الهوة. الآن سيعرف ما هو الموت، وتهاوى جسده منحدرا يثير من خلفه الغبار. وكان يحس بنفسه يبكي وهو يتقلب على الأرض الصلدة ويسمع من بعيد أصواتا تهتف بتلك اللغة التي لا يفهمها. ولم يتذكر "علي أصغر" ولا بقية الرفاق، وكان يموت.

أمسية خريف

سار بخطوات لينة مخترقا الشارع المشجر، كان طويل الجسم يرتدي ملابس زرقاء غامقة وعليه مسحة غريبة من السكون. والشمس لم تكن قد غربت بعد، ولبثت أشعتها الصافية الحمرة تحتضن رؤوس الأشجار العالية. السماء رقراقة شفافة بلورية الزرقة، ليس على صفحتها الملساء غير غيوم خفيفة. ذكره هذا المساء الخريفي الرطب الهادئ بالشتاء المقبل وبجليد الشمال، أبيض، أبيض كالقطن، فابتسم بهدوء. كم قضى من أيام سعيدة هناك!

هناك، هناك في الموصل، وخطر له أنه يبعد عنها سفر ليلة بالقطار السريع، يسير في الليل المظلم البهيم ويصل بغيته صباحاً على زقزقة العصافير. لا يوجد أجمل من هذا القطار، هذا القطار العزيز.

ومع ذلك فلم يركبه منذ سنة ونصف. كانت علاقته بالموصل قد انقطعت، لكنه لما يزل يحب قطارها.

قصرت خطواته وبدا على وجهه الطويل المحلوق حزن خفيف، ثم انطبع على عينيه الواسعتين العميقتين شرود عن العالم وتطلع إلى أفق قصي.

رجعت إلى ذهنه، انبثقت فيه، صورة جميلة رافقت جميع أيامه الحلوة في الموصل. عينان زرقاوان شاحبتا الزرقة، ملامح دقيقة شفافة البياض، شفتان طريتان، وشعر ذهبي ناعم. كان يلمس شعرها بحنو فتسري نعومته السحرية في حنايا جسمه، فتبتسم الشفتان الطريتان وتبتسم هي له وتبتسم عيناها لعينيه. تبتسم عيناها لعينيه، فتضيقان قليلا وتبتل جوانبهما بمثل قطرات الندي وتشحب زرقهما الفرحة. وشعر ببرودة نسمة هبت من بين الأشجار فأغمض عينيه فترة "ما هي حياتنا هذه؟ نتماسك ونبذل جهدنا، لكن ذكرى عزيزة واحدة تخرب كل شيء".

تخرب إرادته في ألا يعيش مع هذا الخيال، هذا الطيف المحوم الذي لم يعد بعد داخلا في حياته. "لم تزوجت إذن؟" وأدرك في الحال عوز سؤاله لأي معنى. كانت بديعة حلوة مثل الربيع، ذكية كأنها الحياة كلها. ولم ير شيئا ناقصا فيها سوى أنه أحبها أكثر مما تحب المرأة. وعندما تعرف عليها، تذكر في لحظة كل شيء، وصافح اليد البضة الممتلئة وضغطها وأحس بحرارتها، تلمس بوضوح الرباط الخفي الذي وصل بينهما. كانت تلف جسمها، أوه جسمها الإلهي، برداء أبيض ضيق بعض الشيء، وكانت تكشف عن ذراعيها. عندما

جلس قربها يحدثها، شعر بدفء غريب ينبع في قلبه ويسبغ عليه روحاً من السرور. كانت مؤدبة، لطيفة، ساحرة، ولم يدر ماذا يعمل لها إن لم يتزوجها.

وتركت أضواء الشمس الحمراء، حمراء كشفتيها، رؤوس الأشجار وشعشعت في غيوم خفيفة فصبغتها بلون الدم. وتسلل نسيم مبلل من بين الأغصان الساكنة فعبث بخصلة من شعره. كانا معا في غرفتهما وهي ترفع بأصبعها البارد اللين خصلة من شعره تقع بعد حين، وكانت تريد أن تفني فيه. لكنه، وهو يشعر بدفئها قربه وحيويتها، رفض ذلك ببسمة خفيفة وحذرها من الفناء فيه. "لم لا أكون داخلة في نفسك كأنني أنت؟" قالت ذلك مخلصة، تلك المخلوقة الحبيبة، ورفعت الخصلة والتصقت به. "ألم أقل لك حذار؟ إنك حبيبتي، وأنت زوجتي العزيزة، ولكن لا تكوني صدى لي. سأكرهك آنذاك". وقلبها، وامتص طراوة شفاها وحرارتها.

"دعيني أسعد معك وتسعدين معي، لأننا عالمان يبهج أحدنا الآخر".

فتكور خداها الأبيضان الصقيلان في ضحكة ذات مغزى "هل تظنني لا أفهمك مطلقا؟" كلا، كلا، لم يظن أنها لا تفهمه جيدا. كان

يعلم أن فيها بذرة طموح وذكاء وخصب، وقد جعلتها عبادته لجسمها وروحها تشعر بلذة الخلق. وهكذا قضيا سنتين، سنتين في الجنة. نمت نفسها، شخصيتها، في أشهر قلائل نمواً لم يتوقعه لها. أخذت تقرأ كتبه، وقد كانت متهجسة أول الأمر، تخاف ألا تكون ندا لما تحاوله. قالت له، يوما، وكانت مقبطة الحواجب يظهر الضيق على وجهها الرائع "قرأت كتابا عن الفلسفة اليونانية". ثم هزت رأسها فتمايل ذهب شعرها "ولم أفهم منه شيئا". "هل أكملت الكتاب؟" "كلا" "أكمليه في المرة القادمة". وهنا أضاء بعنف نور داخلي فيها، تطلعت إليه مترددة قليلا ثم رفعت يدهافحكت خدها الأيمن "كلا، سأهمل كل كتاب لا أفهم منه شيئاً".

وتداخل الظلام الكثيف بين أشعة الشمس الصفراء فخفقت خفقات بسيطة وارتفعت من الغيوم الخفيفة العالية إلى سماء لا ترى، وكان الشارع المشجر قد انتهى وانفسح أمام عينيه فضاء عريض فوقف برهة. عاد إلى نفسه فتذكر موعدا نسيه بين طبات هذه الذكرى، فرجع أدراجه ودلف بعد سير قصير في طريق ضيقة. كان الظلام باهتا، لكن أنوار الدار الصغيرة لفتت نظره من بعيد فعرف أنه وصل بعد الوقت المضروب. "لابد أن بعضهم قد جاء قبلي. ماجدة

وحفلاتها التي لا تنتهي!" ثم ضغط على زر الجرس ففتح له الباب بعد قليل:

- مساء الخير

فأجابته الشابة الجميلة:

- مساء الخير عمي، تفضل.

كانت سوداء الشعر سوداء العينين واسعتهما، وكانت بشرتها بيضاء صافية. دخل وراءها شاعراً بمرح يفاجئه، كانت قصيرة ممتلئة الجسم تتحرك بحركات لطيفة لا تكاد تمس الهواء. خطر له "هذه صديقة فتانة فقدتها".

كانت تفهمه وتنصت إليه حين يكلمها وتعتبره رجلا كاملا، وكان يحاول دائما ألا ينظر إليها كابنة أخيه، أفهمها دائما أنها امرأة، شخص منفرد لا ينقصه شيء، وأنها له صديقة عزيزة. ولكم جلسا سوية يكلمها فيسحرها، ولكم تنزها في الدائق قرب بيتهم وسارا يحسان بالزمن.

دخلا قاعة ذات ضوء بديع فسلم على الجالسين فيها وصافح بعضهم ثم جلس قربها على كرسي طويل:

- هل أقول لك بلانكليزية **Happy Birthday** فابتسمت:

- لا حاجة أبدا. خذ راجتك وتكلم بالعربية فضحك من صميم قلبه:

- إني آخذت راحتي معك دائما.

ثم أردف:

- هل أقدم لك هديتي الآن؟

فتحمست جداً، كان حماسها جميلاً:

- طبعا، طبعا. ما هي؟ كتاب أليس كذلك؟

فأخرج لفافة من جيبه:

- لم تعد مفاجأة مع الأسف.

اختطفته من يده وأسرعت تقوم خارجة من القاعة:

- لن أرى هديتك لأحد.

– لماذا؟ ألا تستحق أن ترى، أم أنهم هم الذين لا يستحقون؟

– هم هم بالتأكيد.

واختفت وراء الباب.

تزوجت قلبه دكتورا غنيا. كان طوسلاً سمينا ذا عقلية علمية تافهة ونفس كابية فقيرة. كانت فتاة صغيرة آنذاك فتألم لزواجها ألماً عجيباً لم يتصوره. حدثوه عن خطبتها ذات مساء، فخرج ذاهلا لا يعلم سببذهوله، وخرج متألم لا يعلم سبب ألمه. لم تكن مستعدة لحياة مثل هذه التي بيتوها لها وكان يشعر بذلك شعوراً طاغيا. ولحسن حظه لم يرها بعد زواجها، فقد سافرت مع زوجها لقضاء شهر العسل، ولكنه كان ينتظر تغيرا فيها، وكان لهذا الانتظار، قلقاً حزيناً.

أشعل سيجارة وسحب نفسا عميقاً منها. جو القاعة كان مليئا بالدخان وحرارته عالية وأحاديث الجالسين ترتفع وتمتزج فيه بصورة مزعجة. ذكره هذا بحفلة أقامها مع زوجته في الموصل، فعاد لعينيه العميقتين شوردهما وتطلعهما إلى أفق قصي. كان نور الغرفة ورديا خفيفاً لا يؤذي العين، ورائحة الدخان والفوضى التي تسود الأثاث تعطي انطباعاً بانتهاء حفلة ناجحة. وكانت زوجته في ثياب خضراء

داكنة، أنوثة طاغية محرقة، ودقد جلست باحتشام على كرسي أمامه تشاركه تدخين سيجارة أخيرة قبل النوم. النوم. آه، النوم سوية وعلى فراش واحد دافئ مع حورية مثل زوجته. أحس بنفسه يشتعل.

لم يرها لحظة تختلط مع أصدقائه وزوجاتهم إلا وشعر بجنون رغبة قوية يحرقه. كانت معبوده حتى حين تبتسم إلى رجل آخر. معبوده الجميل، خدودها المتوردة الصقيلة، شفتاها الحمراوان حمرة شديدة، وعيناها مكحلتان شاحبتا الزرقة، ولحملها بض حار ناعم.

جلسا بسكون، ينظر إليها فتحاول أن تتحاشى نظراته وتحاول أن تنزل أطراف ثوبها على غير عادتها. لم يبد عليها أنها تريد أن تتكلم. لكنه تهجس ما تضره. رأى عينيها تعبران عن قلق لا يحتمل، كانت عيناها تتكلمان وتقاومان وتشتهيان وتتعذبان، وبقيا جالسين بسكون. كم طال هذا السكون! ثم أطفأت سيجارتها بأنامل ترتجف وبادأته: "مارأيك بعبد السلام؟" "هذا الضابط شقيق سعيد؟" فهزت رأسها بصبر نافد أن نعم، "فارغ" "فقط؟" "ومعجب بك أيضا. انظري، إن إعجابه يزعجني. إنك لا ترديه" قطبت حاجبيها الأسودين، ود لو قبلهما "ماذا تعني؟" "لا شيء، لا شيء مطلقا" وتخيل الفراش الدافئ واللحم البض الحار الناعم "اسمع" اندفعت هكذا فجأة: "إني

احترمك كزوج" فأفزعته في حلمه، أفزعه القلق الممزق الذي انثال من عينيها الحلوتين "لكنني أعتبر نفسي حرة بعواطفي. ولهذا السبب اتصلت بعبد السلام". كانت تعصر أصابعها ورآها تضغط على أسنانها بعنف. لم يفهم كلماتها أول الأمر، ووجف قلبه، ثم أحس بنفسه يضطرب، وبداخله ينقلب إلى قطعة لينة تتماوج ثم توشك أن تنهار، لتعود ثابتة ثم تتماوج وتتماوج وتميل إلى الانهيار.. الانهيار التام.

وفي لحظة خيل إليه حرارة غريبة تسري بلين من وسطه الأعلى.. إلى رأسه، فألهبت قلبه ثم دوخت ذهنه. "ماذا تقصدين؟ لماذا تتكلمين؟ فأسرعت تريد أن تنجو من هذه الدقائق النارية. "أظن قصدي مفهوم، ثم أخرجت منديلها الحريري الأبيض وصارت تشده وتتركه بين أصابعها: "لا تعذبني ياطارق. أني أتكلم بهذا الشكل كي تعرف بأني لست منحطة". أو حيوانة. أنا أحترمك، لكنك لا تستطيع أن تقتل كل عاطفة فيّ.فأشار إليها بيده، كان يعتقد أن بمقدره أن يهدأ لكنه يحتاج إلى زمن.

وكان هذا الزمن بعيدا عنه، غير أنه يجب أن يحصل عليه. إنها لم تكن تهذي. وهذا ما أوقف الدم في عروقه وأخفض درجة حرارته. ولم تمر لحظات حتى كان هادئا، رفعت عن عينيه ستارة التبلد ولم

يخطر له يوماً أن يكون بمثل هذا الهدواء. هادئ، هادئ بصورة تامة. كالبحر دون أمواج، كالسماء، كالسماء. "لماذا تتخاصمين؟ تكلمي على سجيتك" وزفرة باردة هي كل ما بقي من أزمته. كان يعلم أنها لم تكن تتعارك معه، لكنها كانت تتصارع بضراوة مع نفسها. "لست أكرهك". أمالت رأسها وأغمضت عينيها برهة. "لست أكرهك ياطارق. لقد بادلت هذا الشخص عاطفة لأعرف أنني مازلت إنسانة حتى بعد زواجي" المجنونة.

الطفلة المسكينة المجنونة. فكرتها أوضح من الشمس وأشد سذاجة من بكاء الطفل. أدرك فجأة أنها حطمت حياتهما دون سبب. كانت تجربتها خطرة نزقة، ولا يزال يلومها أنها أدخلت العالم كله. معها في هذه التجربة، وأدخلته إليها هو قبل الداخلين. قبل العالم كله وضعته على حين غرة أمام أزمة في حريته اجتازتها هي بتعثر وتخاذل وخسة، وكان عليه أن يجتازها هو أيضا وأن يخرج منها محترما لنفسه؛ محترما لنفسه، محترما لنفسه.

وسحب نفسا عميقا آخر من سيجارته ثم تنهد. كان وحيدا، وحيدا في عالمه. ومن كرسيه المريح يراقب الدخان المتصاعد من السيجارة إلى الأعلى، مثل الضباب، مثل روحه الحرة الثي تعشق

السماء. ولكنها روح وحيدة، وهي لو حدتها حزينة كئيبة دائما. وعندما رأى الدكتور حامد زوج ماجدة يدخل الغرفة بضوضاء مصطنعة، خيل إليه أن من الصعوبة أن يملك مخلوقا مثل هذا روحا تعشق السماء، وقام سصافحه. "كيف أنت؟".

"شكرا، بخير. تفضل استرح" كان بدينا نازعا سترته ومظهرا الشعر اللامع الأسود في صدره. شعر بتفاهة هذا الشخص وهو إليه يصافح مدعوا آخر، ما غايته في الحياة؟ ولماذا لا يموت؟ وسمعه يتكلم "من هو؟ عبد الستار؟ لو يشتغل بائع حب لعاش أحسن من عيشته الحاضرة. إنه مجنون" وصدقوه جميعا. كانوا ينصتون إليه كأنه يعلمهم الكلام. ومع ذلك، فلأجل شخص، لوح خشب من هذا النوع أرادت أن تكون إنسانة تشعر بحريتها وشخصها. كم اشتهاها تلك الليالي التي أعقبت اعترافها!

ود لو يضع هذه المخلوقة الجميلة الثائرة الخائنة في قلبه، في صميم قلبه، ولكنها كانت بعيدة عنه؛ بعدت خلال يوم واحد مسافة هائلة عنه. ومع شعوره وهو في مكتبه يسير ذهابا وإيابا بأنها تجلس كالحجر في غرفة النوم، فإنه لم يكن يصدق، لم يكن مطلقا أنه إذا فتح بابا قريبا فسيجدها أمامه بكل ما فيها، بكل دنياها الغريبة

الملونة. ولكنه مع ذلك لبث يتصورها أمام عينيه. أبقاها طوال الليالي الأربع تجاهه. مرة عارية، جسدها الملتهب الراقد جنبه، المستعد للفناء فيه، ومرة واقفة في ثوبها الأخضر الداكن تعلن له، آه.. ولم يكن يطيق استرجاع هذه الصورة في ذهنه. كان يشعر آنذاك بأن عليه كرفيق أن يفهمها، يفهمها كما لو لم يكن زوجها، يفهم حقارتها وذلها وضعفها وخستها. ولكنه يفهم أيضا محاولتها ورغبتها الصادقة، من يدري، في أن تنال صفة لا تعلم هي نفسها ما كنهها.

لعلها كانت تموت لو لم تفعل ما فعلت، ولعلها، من يدري مرة أخرى، لم تكن بها حاجة لأي شيء من هذا النوع. ومع انشغال فكره الفظيع، ما أمرها ساعات، فلم ينس الملل الذي صار يضغط عليه تلك الأيام ضغطا مؤلما. ملل من كل شيء، من تقرير مصيره معها، من الاهتمام بنفسه، من تذكر كلماتها وحركاتها، من الحياة نفسها، الحياة نفسها. وبسبب هذا الملل فقط لا يزال يتذكر ذلك المساء الرهيب ولكن لم كان رهيبا؟

لبس ثيابه حوالي الرابعة والنصف وخرج من المكتب فوجدها جالسة في "الهول" تقرأ كتابا. كانت نظيفة حبيبة، فتملكه رغبة قاسية في تقبيلها، في احتضانها، في البكاء معها، وتقدم نحوها فرفعت

بصرها إليه. العيون الزرق الشاحبة، الزرقة الشاحبة الخائنة. لقد ضاعت من حياته. "أعتقد أن الندم شيء سخيف بالنسبة لنا". فتحركت شفتاها الحمراوان حركة بسيطة "ولعلي كنت أفهمك جيدا لو لم.. لولم أكن أحبك، ولهذا" سكت كأنه يشتاق أن يطيل زمن وجوده معها "لا أظنني أستطيع أن أعيش مع امرأة مثلك.. أشمئز منها". وخرج، ولم يرها بعد ذلك. خرج إلى المساء الرهيب الطويل الذي لا يريد أن ينقضي. بقي يسير في شوارع الموصل دون أن يدري لماذا، وكان يحس بالازدحام يخنقه ويعصر صدره.

السماء غير السماء، والناس غير الناس، والشوارع غير الشوارع، والدنيا كلها غيرها هذا المشاء، وكان في شارع "نينوى" المظلم وهو يشعر بنفسه حبيسا بين الناس، عندما رأى سلسلة من الجبال تترامي وراء الجسر.

ألوانها باهتة، لكنها تبدو كأنها في الغيوم، في عالم سحري جذاب، فلفته شهوة عنيفة في الانعزال بين وديانها ومرتفعاتها، شهوة عنيفة كاد يصرخ ويبكي حين تملكها له. وعبر الجسر الحديدي واندفع إلى أرض منفسحة لكن مياه النهر دوخت رأسه والأفق البعيد

أدخل اليأس إلى فؤاده. لماذا يعيش دون سبب بين الناس؟ بين الناس، بين الناس دائما؟

وعاد تلك الليلة إلى بغداد، في القطار الذي يسير ليلا ويصل بغيته في الصباح على زقزقة العصافير. ماأسخف هذا حقا؟ "هه" وأحس بنفسه، شعر بجسمه، وهو يقف أمام الشباك والقاعة من خلفه خالية ساكنة، سمع ضوضاء المدعوين في غرفة أخرى، فانكفأً إلى الحديقة. كانت مظلمة، مظلمة مثل حياته، لا تبين للعين فيها غير أشباح أشجار تتحرك، ومن يعلم فقد لا توجد هذه الأشجار! وإذا حدث لم توجد؟ "هذا العيش في الماضي سيقتلني أخيراً". ورجع قاصدا الغرفة الأخرى ذات الضوضاء.

كان بعضهم يرقص على نغمات خافتة من الراديو وبعضهم يشرب من كؤوس لامعة، ورأى ماجدة مشغولة بالاهتمام بمدعويها، أما الدكتور فكان منتفخا وسط لفيف من أصدقائه يحدثهم: "يخطب دائم هذا الدكتور التافه" وسمعه وهو يقترب "منهم أنا؟ أنا لا أدعه يعمل حمالا عندي. إنه لا قيمة له". فانبرى له مستهزئا: "لو يشغل ببيع الحب لكان أشرف له" فتطلع إليه الدكتور بنظارات تلتمع وسكت

لحظات. "فعلا، بالفعل" فهز هو رأسه مبتسما بهدوء وتراجع يفتش عن ماجدة. رآها تخرج من الغرفة فلحق بها.

سألها، وكانت ترتب المائدة، عما يشغلها فضحكت. "بطونكم، بطونكم" فضحك معها وتركها إلى غرفة أخرى. حدث نفسه أنها قد تكون حقيقة تريد الانطلاق من أسر زوجها، قيود التي وضعها في يدها يوم عقد زواجه، وتذكر يوم زارهم بعد عودتهم من شهر العسل. أحس منذ الساعة الأولى أن صديقته العزيزة فقدت نفسها فقدانا مريعا. حدثته عن سفرتهم: "لم نستطع مفارقة سويسرا. سحرتنا جبالها وثلوجها وأنفاسها. أردت الذهاب إلى فرنسا لكننا لم نذهب"، كان حديثها بصيغة الجمع كأنها صارت اثنين أو كأنها أضاعت الواحد الفرد الذي كانته. ثم تذكر زيارته الأخرى لهم، زياراته المتصلة لكنها كلها كانت تزيد خشيته في فقدانها. حتى اللحظات التي كان يشعر فيها أنه أرجع إليها قليلا من نفسها، كانت تسأله منكسرة يوشك أن يحس أنها معذبة. "ما الفائدة من محاولات الإنسان معرفة نفسه كما تقول؟" ثم تجيب نفسها في ذهول بسيط "لا فائدة البتة، حياته تبقى كما هى، عالمه يبقى هو هو". فكان يسكت ويخشع أمام هذا الاستسلام المخيف، هذا الضياع للشيء الوحيد الذي يملكه

الإنسان. سمعهم ينادونه فخرج وذهب إلى غرفة الأكل. كانت أحاديثهم كلها عن أمور تفصلهم عن نفوسهم وكانت كلمات الدكتور تنفذ إليه في وحدته بين آن وأن. "من هو؟ سعدون؟ أبو شوارب؟ هذا الحيوان" "انظري ماجدة، هذا ليس ملائما". وكان يراه يراقب كل حركة فيها ويخشى ألا تعمل ما يراه ملائما وتترك ما يراه غير ملائم، ثم غاب عن عالمهم بعد أن ضجر، وعاد بعد وقت فوجد نفسه منفردا مع الدكتور بعد أن ذهب المدعون عقب تناول الطعام. كانا يدخنان، وكانت ماجدة قد صعدت إلى غرفتها لتبديل ثيابها. لم يدر لماذا بقي، ولماذا كان يبقى طويلا كلما جاء عندهم؟ أهي رغبته في أن يراها، أم، ررغبته في خلاصها الذي لا تفهمه، أم رغبته في أن يتحسر أكثر ما يستطيع؟

كان الدكتور يشرب من قدح بجوار مقعده. ثيابه غالية مترفة وبشرته بيضاء يكسوها شعر أسود نظيف، وشحمه يترجرج إثر حركاته الطفيفة. كم هو تافه، لله، كم هو تافه! "الهواء بارد قليلا" قالها الدكتور وقام إلى الشباك فأغلقه ثم التفت إليه: "هل جلبت لماجدة كتابا؟" فأجابه بهزة رأس فيفة فاستمر الدكتور: "حسنا، هل تعلم أنني لن أدعها تقرأه؟"

وانعكس الضوء في نظارته فتلألأت: "إنه يفسدها. يدخل في ذهنها أفكار لا أحبها" "سخافة" واطفأ سيجارته بأصابع مضطربة. "نعم؟" فانهمر كالسيل وهو يشعر أنه يدافع عن حياته "أقول لك إنك سخيف. إنك مجنون. تريد أن تجعلها آلة بيدك، عضوا من أعضاء جسمك. تريد أن تقتل كل نزعة عندها للاستقلال. لماذا تقف أمامك انسانة مثل باقي الناس؟ كلا. لأنك تخشى من ذلك على نفسك، الجبانة الأنانية"كان مضطربا دون أن يعلم السبب، وقد شعر بصورة مبهمة كأن زوجته تراقبه، فتمزقت أعصابه فجأة، بينما لبث الدكتور هادئا متعلاقا "ليست لدي هذه النزعة التي تتحدث عنها وأعتقد أن زوجتي إنسانة بدرجة كافية، وأعتقد أيضا أن محاولاتك المتكررة لجعلها تنفر مني، أنا زوجها، ليست محاولات يمكن أن تسمى شريفة".

ثم نزع نظارته وبقي يمسكها بيده اليمني. ومع أنه كان مواجها للباب الذي وقفت فيه ماجدة تنصت خافقة القلب إلى كلمات زوجها الأخيرة، فإنه لم يستطع أن تعيش مع زوجتك لأنك تحب امرأة أخرى. ولهذا تريد أن تفرق بين كل زوجين يعيشان بسعادة". ماذا يفعل هذا المخبول؟ وقف محتدا أمام الدكتور: "لا تتدخل بشؤوني الخاصة. هل

فهمت؟" فاتخذ الدكتور صفته الأزلية، صفة العالم "إن حبا شاذا يسيطر عليك، حبا شاذا. اذهب وفتش لنفسك عن محلل نفساني. اترك هذه المحاولات لتخريب بيوت العائلات السعيدة"، وقطعت على الدكتور كلامه صرخة ثاقبة انبعثت عند باب فالتفتا. كانا محمري الوجه مشوشي الذهن، ولم يفهمها لماذا صرخت ماجدة وتقدمت نحوهما ويدها على صدرها ووجهها أصفر شاحب. كانا يتصوران أنهما يتفاهمان بهدوء واتزان فانتظرا منها لذلك أن تكون حكما بينهما. انتظر بصورة لا إرادية وبأعصاب مزعزعة.

كان الليل باردا رهيب الظلمة، يشابه إلى حد كبير ذلك المساء الأسود الذي قضاه في الموصل، وكانت السماء غير السماء، نجومها لا تنير ولونها قاتم كئيب. والأشجار تقف بسكون كالأموات، والدنيا كلها غيرها في هذا الليل الرهيب الطويل. اندفعت متلهفة إلى أحضان زوجها: "حامد، حامد، لاتدخلني أنا، إني لم أرتكب ذنبا"، وخصلات شعرها السوداء تهتز باهتزاز جسمها الرشيق. لم يبق له مكان في الدنيا "إن حبا شاذا يسيطر عليك، حبا شاذا" الشارع المشجر خال لامع الأرض، والأضوية ضعيفة صفراء. خيل إليه أن زوجته تسير جنبه وتشاركه عالمه الحزين، لكنه خيال مر عليه لحظات ومضى. وبقي

سائرا بخطوات متثاقلة بطيئة وجسمه منحن. لماذا يعيش دون سبب، يعيش بين الناس، بين الناس دائما؟

واختفى في ظلام الشارع.

بعقوبة ١٩٥١

التنور

"تخطيطات لدفاع عن النفس غير مكتوب"

صحيح إني لم أقل الحقيقة أول الأمر، كتمتها شهرا وبضعة أيام.. إلا أني كنت موقوفا طيلة تلك الفترة. والشرف عزيز والإنسان لا يعلم متى يجب أن يقول الحقيقة.

سادتي الحكام، إني بريء من هذه التهمة وقد قتلت فرحة زوجة أخي عبد الحمزة لأنها كانت زانية. لقد فاجأتها وهي متلبسة بجريمتها فأخذتني العزة العربية وفقدت صوابي، كما تعلمون، لأن الشرف غال، وقد جرت العادة أن يغسل بالدم. لذلك حشوت بندقيتي الصيدية المبرزة أمامكم وأطلقت عليها النار مرة واحدة وهي بحالة التلبس. أما العشيق.. اسمحوا لي أيها السادة الحكام أن أتكلم من البدء بشأنه.

لم أره معها كما يمكنكم أن تخمنوا. كانت خارجة ذلك الفجر من غرفتهم تعد لنا الفطور وهي تلبس دشداشة حمراء منطقة بالأبيض. رأيتها قرب التنور تسجره استعدادا لصنع الخبز. قالت لي إنها أخطأت

وزنت وهي ترغب في الانتحار. ثم بدأت باشعال التنور وتحضير الطلقات كي ترميها فيه وتنتحر، ففارت الدماء في عروقي ووجهت نحوها البندقية ثم أطلقت النار فأرديتها قتيلة. الشرف عزيز ياسادتي الحكام ونحن عرب أقحاح لا نستطيع أن نترك العار يمسنا هكذا. لقد اعتدنا أن نقتل الزانية.

جرت العادة ألا ندع المخطئة تحيا بيننا. إنها وسخ يجب أن يزال. ولقد قالت لي فرحة بنفسها إنها خانت زوجها في فراش الزوجية منتهزة فرصة توقفيه من قبل المدير فواعدت عشيقها فجاءها بعد نزول الظلام. إني لم أفعل شيئا يوي الدفاع عن عرض العائلة. إن زوجها أخي وهي ابنة عمي. ولقد استغلت صغر سنها وجمالها، لأنها في التاسعة عشرة من العمر، جميلة الوجه بعينين كالعسل، كي تغري عشيقها ليوافيها في الموعد المشبوه؛ وهكذا انتهي كل شيء.

أما أختي لأمي حليمة فلم تر شيئا. أحلف لكم بكتاب الله العظيم.

نعم لقد كانت معي، ولكنها لم تشترك بأي عمل لأنها لم تكن هناك. لقد كانت في جهة أخرى من الدار. ولأجل أن أوضح للمحكمة المحترمة وضع العائلة وطريقة معيشتها أود أن أول إننا أناس

فقراء، نسكن جميعا في دار واحدة ذات غرف متعددة مبنية كلها من الطين. في الجهة الشرقية غرفة أخي عبد الحمزة تلاصقها غرفة والدتنا ثم غرفة عائلتي. أنا شخص متزوج منذ عشر سنوات، ولي أربعة أطفال صغار. لقد خدمت في الجيش ورقيت إلى رتبة نائب ضابط، ولم يحكم على من قبل. التنور يقع وسط الحوش، قريبا من حجرة أختي حليمة. إن لأختي غرفة طينية صغيرة مثل غرفتنا تسكن فيها، نسيت أن أنوار المحكمة عن هذه الجهة.

ليلة الحادث، في الصباح، أيقظتني أختي من النوم. وفي الحقيقة كنت مستيقظا، وأعتقد أن خالتي نورية التي كانت برفقة زوجة أخي القتيلة هي التي نادت علينا تسألنا عن نصدر الإطلاقات النارية. خرجت فوجدت فرحة ممددة قرب التنور والطلقات تنفجر فيه. هذه هي مخلصي أقوالي أمام المحقق، وهي لا تمثل الواقع كما تعملون يا سادتي الحكام. لقد نسيت نفسي وأعدتها عليكم فأرجو المغفرة. لقد حلت بنا المصيبة فجأة فخطر لنا أن ندبر أمرنا بشكل من الأشكال، إلا أن الحقيقة لا يمكن أن تخفى، لا يمكنها أن تختفي لسوء الحظ. لقد كنت نائما تلك الليلة في الدار حينما أيقظتني حوالي الساعة الرابعة أو الخامسة صباحا أختي حليمة. همست بأنها قد رأت شخصا

يتراجع ويمر مخترقا الحوش بسرعة. قمت خارجا وذهبت إلى غرفة أهلي النائمين، ثم انتقلت إلى غرفة القتيلة فرحة فرأيتها بمفردها. لقد تبين أخيرا أن أختي حليمة، وهي بالمناسبة فتاة صغيرة، حادة الطبع في السابعة عشرة من العمر، كانت قد شهدت أمامكم كيف أنها رأت القتيلة فرحة نائمة مع شخص غريب وهي تمارس معه فعل الزني فجاءت إليّ توقظني فارتديت ثيابي وخرجت أستطلع الخبر. عندئذ رأيت فرحة تهيئ التنور. هكذا تمت الأمور فعلا. كانت السماء بيضاء والتنور ثائرا يقذف حممه الحمراء.

قالت لي فرحة، دون أن تستدير، شيئا عن الزني والشرف والانتحار.

كنت مرتبكا أمام حكاياتها، لكن دمي فار بسرعة فتناولت البندقية من حليمة ووجهتها نحو فرحة ثم ضغطت الزناد. أطلقت نحوها طلقة واحدة فقط من هذه البندقية الصيدية التي وجدت قرب الجثة. لقد حشوتها بخردقة واحدة، ولذلك تجدون أن الطلقة اخترقت رأسها. كنت أدافع عن شرف العائلة المثلوم، وأني لأطلب منكم أيها السادة الحكام أن تقدروا موقفي الكامل وأن تأخذوا بعين الاعتبار والرحمة وضع عائلتي الكبيرة وكوني شخصا فقيرا بنيت نفسي

بنفسي وتعلمت القراءة والكتابة وأني نائب ضابط سابق. لقد قتلت الزانية لأنها زنت وليس لسبب آخر، وأنتم تعلمون أنها اعترفت لي بذلك وجها لوجه. وقفت أمام التنور بثوبها الأحمر وهي تعلن بأنها قد أخطأت ولو ثت شرفنا كلنا. أما أقوال الشاهدة نورية، من أنها كانت مع فرحة في نفس الغرفة طوال الليل فلا قيمة لها.

إنها امرأة مختلة الشعور وأنها اعترفت لي بنفسها أنها قد ارتكبت جريمة الزنى.

كذلك فان أختي حليمة رأتها في وضع مشين لا يقره الشرف ولا الشرع. امرأة تستغل توقيف زوجها لتواعد عشيقها في نفس الليلة كي يأتيها بعد غروب الشمس إلى الزوجية ليرتكبا جريمتهما الشنعاء.

في نفس الليلة أيها السادة الحكام؛ أثناء ما كنا مهمومين جميعا بتوقف أخي عبد الحمزة كانت هي – لا أدري بأية وسيلة – تدبر أمر لقائها مع المجرم. إني شخص غير متعلم، همجي كما يقولون، ولكني أعرف مكانتي ومقامي، رغم أني لا أزال شابا لم أجاوز الثلاثين. لقد أفهمت القتيلة جيدا بأن جريمة الزنى لا يمكن أن تقع في دارنا. نحن عائلة شريفة محافظة من الأعراب، لاتسمح بأن يثلم شرفها، حاولت

إقناعها بشتى الطرق أن تترك نصوراتها وأوهامها جانبا وألا تتهم أحدا بأمور دنيئة.

لكنها بقيت مصرة كمن أصابته جنة، فتركتها ترجع إلى غرفتها بانتظار أن تثوب إلى رشدها وعدت أخير حليمة بما جرى وأغتسل. ولم أكن أكملت اغتسالي عندما دوت الطلقة، فخرجت إلى الحوش الغارق بفيض خفيف من النور. كانت شعلات التنور تتدافع من فمه والخالة نورية تواجهني بالسؤال عن القتيلة فرحة وعن الطلقات.

أجبتها بشيء ما، ثم دفعتها حانبا وركضت نحو غرفة أخي عبد الحمزة حيث وجديهما معا. كانت قد قتلت، أو لعلها انتحرت. أخذت المسدس وعدت مع حليمة إلي غرفتها. إلا أني أزوغ مرة أخرى عن الحقيقة. هذه عادة عندنا لم تألفوها أنتم، سادتي الحكام وقد لا تطيقونها، إننا لا نستطيع أن نحصر أذهاننا في شيء واحد دائما. نحن، الأعراب الفقراء، نفكر على عدة طرق، وبكلام آخر نحن قوم مشتتو العقول. نبدأ بفكرة أو موقف واحد ثم لا نلبث قبل أن نعطي تكملة له، أن ننتقل إلى فكرة أخرى ذات رونق أبهى أو أقرب إلى القلب. ثم نقفز إلى ما تشتاق إليه النفس مرة ثالثة. نحن أناس همج شرفاء، نريد أن نعيش ونأكل خبزنا بسلام، وأن كل ما

تلوكه الألسن عنا هو محض افتراء. وأنا إضافة لذلك شخص بريء كما سبق أن قلت مرارا. لقد دافعت عت شرفي كما يجب أن يدافع عنه أي ردل شريف متزوج وله عائلة كبيرة يفكر بمستقبلها. إن الشرف لا يتجزأ، سواء كان موضوعه زنى أم فضيحة. لأنه واحد، وكلنا في الشرف سواسية. نحن مبتلون بأن نكون شرفاء وأن ندافع عن شرفنا بالدم. ولم أفعل شيئا غير هذا، ولا أدري كيف أشرح لسادتي الحكام الموقف المعقد. إني شخص بدوي غير مثقف دافعت بطريقتي الخاصة عن الشرف. وإن الموقف رغم تعقيده بسيط في النهاية ليس فيه أشكال، وسأضع الحقائق أمامكم للمرة الأخيرة.

كنا عائلة واحدة. أخي عبد الحمزة ومعه زوجيه القتيلة فرحة في جهة من الدار، وقربهم أمي وأبي ثم أنا وعائلتى. زوجة وأربعة أطفال صغار.

وبعد ذلك أختي لأمي حليمة في غرفتها قرب البئر. التنور كان وسط الحوش تقريبا. يوم الحادث أوقف أخى. خالف تعاليم الإصلاح الزراعي رغم نصائحي فأوقفه المدير. جاءت الخالة نورية لتبيت مع زوجة أخي.

حقائق بسيطة غير ملتبسة. ثم تسلل إلى الدار عشيق القتيلة، لا ندري متى، وعند منتصف الليل أو بعده بقليل بدأ شرف العائلة يلثم ويلثم. وهدأ الجميع حتى الفجر، وقت إعداد الفطور والخبز. آنذاك انكشفت الأمور المخزية دفعة واحدة. القتيلة فرحة كانت تمارس الفحشاء طوال الليل، وهي بعد ذلك لا تتعب ولا تنام، بل تستيقظ قبل شروق الشمس كأنها لم تفعل شيئا، ثم تأتي لتسترق النظر على الآخرين. إن الجريمة لا تنام في نفسها، ولقد أيقظتنا من رقادنا وهي ملتمعة العينين، ثائرة الشعر، لتخبرنا بأن الأولى بها أن تنتحر من أن ترى الفحشاء تدخل إلى هذه الدار. كأنها لم تكتف بجريمتها المنكرة تلك وزناها!

عند ذلك أجابتها حليمة أنها قد شاهدتها جيدا مع عشيقها عاريين يمارسان الزنى طوال الليل، فصعقت. أذهلتها الحقيقة المرة والتبس عليها، ثم خرجت هاربة تضع يدها على فمها. لم يبق لي إذن بعد كل هذا إلا أن أزيل وصمة عارنا بدمها. هكذا يمسح العار في ديارنا يا سادتي الحكام.

بدماء النساء. تناولت بندقيتي الصيدية ولبست ثم خرجت إليها. وكما أخبرتكم كانت واقفة تؤجج نار التنو تحت سماء الفجر. كنا وحيدين.

قالت لي بوضوح إنها ستنتحر لأنها لا تطيق أن ترى جريمة الزني باقية بلا عقاب. لم أجد بدا من إطلاق النار عليها من بندقيتي الصيدية هذه. ثم رمت حليمة بعد ذلك وبحسن نية، حفنة من الخراطيش في التنور الملتهب فتلاحقت الانفجارات وأيقظت أهل الدار.. هذه هي الحقيقة يا سادتي الحكام، وكل ما يقال ضدها هو محض افتراء وتشويه مقصود. كذب ما تقوله نورية إنها لازمت القتيلة فرحة كل ساعات الليل، وإنها لم تر أحدا يدخل عليها أو يمارس معها الزنى. اسألوا منها كيف لم ترها إذن وهي تستيقظ فجرا لتأتي تتلصص على الناس الشرفاء؟ من طلب منها أن تعد الفطور وتخبز الخبز وتشعل التنور؟ وإذا أرادت أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها وبغياب زوجها ودون باعث دنيء، فما سبب مجيئها إلى غرفة حليمة؟ ومتى كانت حليمة مساعدة لها في إعداد الفطور؟

كذب ما تدعيه نورية أنها رأت القتيلة فرحة تشير بيدها نحونا. نحوى، وتحاول أن تتكلم فتدهمها حشرجات الموت وتسكتها. هراء

كل هذا، لأني أنا الذي جررتها من قرب التنور حيث انتحرت، وذعبت بها إلى الغرفة ثم عدت بها إلى مكانها الأول. أنا الذي يعلم أين سقطت القتيلة فرحة وأين فارقت الحياة.

كذب أيضا ما احتواه التقرير الطبي عن إصابة القتيلة فرحة بطلقة مسدس في رأسها أودت بها. لقد ضغطت على الزناد، وأنا أعرف تمام المعرفة أي سلاح كان بيدى. كذب وافتراء ما يقال عن تدخل حليمه أبعدوها أستحلفكم بالله عن هذه الجريمة. إنها تجهل كل شيء عنها. أنا هو المجرم _ إذا أردتم _ الذي دافع عن شرفه وأسكت تلك الآنية المرائية إلى الأبد. وأنا بريء يا سادتي الحكام، أطلب الرأفة بي عند إصدار الحكم

لقد ارتكبت جريمة القتل بدافع شريف ونبيل، فكونوا شرفاء معي أنتم أيضا وخففوا من أحكامكم علي. إن هنالك من سيحزن لفراقي، صدقوني. أما أنا فواحسرتاه.

هذه هي الحقيقة، كل الحقيقة.

بعداد ١٩٧٢

(م.أ.ر.ع.س.)

إلى رشيدة

تبدأ الحياة حين لا تنتهي

ف.

عصر ذلك اليوم الخريفي، وقفت بسيارتي على حافة "ساحة المنصور" حيث الرأس الكبير ذي العمامة. لم أكن مترددا قدر ما كنت حائراً، فلقد ألحت على ابنتي صبيحة وهي تراني أتهيأ لموافاة صديق في موعد هام، أن أشتري لها دمية رأتها معروضة في واجهة مخزن افتتح حديثاً في أحد الشوارع المطلة على هذه الساحة، ولأني اعتدت أن أسلك طريقاً معيناً من دارنا في "حي المتنبي" يوصلني إلي شارع ١٤ تموز فأتحه بعده بسهولة إلى "الباب الشرقي"، فقد توقفت على مشارف الساحة شاعراً ببعض الارتباك. كنت أعرف جيداً أن ثمانية شوارع تصب في هذه الساحة وتمضي منتزه جهة من المدينة.. نحو الحي العربي والوشاش والكاظمية أو نحو منتزه الزوراء والمنصور غيرها، إلا هذا الطريق الذي أراه للمرة الأولى والذي أثار الحيرة عندي

أنه يقع بين شارع "الحي العربي" وبين الشارع المؤدي إلى المطار، وقد بدا خاليا، منفتح الأفق، فخطر لي أنه قد يكون الطريق الذي وصفته لي ابنتي. أنا، في العادة، حذر يساورني القلق لأتفه الأسباب، ولعل مرد ذلك تلك السنوات الطويلة من الاضطراب التي عشتها مع آباء جيلي من البشر الذين ولدوا بعد تأسيس الحكومة العراقية بقليل. إذا لم تفتني من كل الانقلابات والاضطرابات التي مرت على العراق، إلا ثورة العشرين. غير أني بقيت مالكاً للحد الأدنى من هدوء الأعصاب مثل بقية العراقيين. كانت الساعة قد جاوزت السادسة بدقائق ففتحت الراديو وتلفت يمينا وشمالا ثم اتجهت بسيارتي نحو الشارع الجديد.

كنت أسوق ببطء، محاولا أن أتعرف على ما يحيطني؛ وكانت العجلات تنزلق على الأسفلت بلين وصوت المذيع في إذاعة بغداد يبدو لي أجش أكثر من المعتاد. لم أتبين شيئا كثيرا مما كان على جانبي الطريق، رغم ضوء الشمس الخافت المريح للنظر. ثم انقطع أول ما انقطع، صوت المذيع الخشن وهو في منتصف أحد الأخبار.

عن الحقائق الكبرى التي لا علاقة لها بهذا العالم، أحدثكم. لم أرد ذلك. إنها الحال المستعصية التي وقعت فيها. أنا شخص يتجنب

المشاكل لأنه لا يحب أن يعتذر. إلا أن مشكلة ولا دتي في إحدى سنوات القرن العشرين على أرض الاضطراب تلك هي التي هدت أعصابي، لم أكن أقصد أمر آخر ذلك المساء غير أن أشتري دمية لابنتي الصغيرة. لوحت لها بذراعي قبل أن أستقل سيارتي الزرقاء من نوع "تويوتا" موديل ١٩٨١.

وهكذا رحت أسوق نفسي خائفة. كان الطريق خالياً، خالياً، خالياً جداً إذا صح القول، والنور حوالي أخذ يتناقص يميل إلى الزرقة. زرقة البحر، زرقة الآفاق البعيدة؛ وكنت، في الخفاء جزعاً. ذلك الصوت في أعماقي يحدثني عن الكوارث، لكني بقيت أسوق سيارتي الزرقاء على أرض الشارع الملساء الرمادية، حينما رأيت أني لست في المكان الذي يجب أن أكون فيه. تلفت، تلفت. لا شيء واضحاً. ضغطت على الكابح بتردد. أنا منزعج، مضطرب. أبطأت السيارة دون أن أشعر بذلك. رأيت مؤشر السرعة ينخفض فقط. عدت أتطلع بانتباه شديد، خافق القلب. ولكن هذه الطريق بلا نهاية ولا حدود! وأنا في الحقيقة لا أرى شيئا معينا ثابتاً، ولا أفهم وضعي تماما. مكثت ساكنا وراء المقود لحظات. لم كل هذه المخاوف والأوهام وأنا وسط المدينة وعلى مبعدة عشرات الأمتار فقط من بيتي؟

صممت على العودة حالاً من حيث أتيت، ضغطت على عتلة البانزين وأدرت المقود بقوة ثم التفت الي اليسار لرؤية المجال الكافي للاستدارة حينما اكتشفت أن ليس هنالك على جهتي اليسرى إلا فراغ أصم. كنت في ضباب من نوعٍ خاص، لا أرى شيئا ولكني سليم النظر، والسيارة صالحة وجيدة، إلا أنهم أطفال لا تتحرك.

كان عليّ أن أهدئ نفسي بعد ذلك، وأن أعي ما وقعت فيه. أهو أمر يمكن أن يحدث؟ أم أنني في هلوسة شخصية لا علاقة لها بالعالم، وأنني بجهد بسيط ربما، قد أستطيع أن أتماسك وأن أنجو؟

كنت مالكاً لحواسي تماماً، وكان قلبي يخفق بشدة. لا مجال لافتراض الهلوسة الشخصية مادام هذا القلب ينبض هكذا. إذن.. وشعرت شعوراً مبهماً، غاية في الإبهام، بأن السيارة تهبط بي، نهبط

بسكون وبخفة وببطء. كأنها تغور في بحيرة من الطين الكثيف. وتضبب الزجاج الأمامي وزجاج النوافذ وصرت على غرة داخل ظلمة حانقة.

استطعت أن ألبث هادئاً، ويداي على المقود ترتجفان قليلا. ثم وبغاية الإبهام أيضاً، شعرت كأن السيارة استقرت على أرضية ما. دون

ضجة، دون رنين أو ما أشبه، والظلام ظلام فوق ظلام، وأنا متشبث لغير سبب بالمقود التعيس. كم قالوا عن بغداد إنها خفيت أمور أشبه بالخيال.. ولم أصدق، مثل بقية الأغبياء.

- الواحد، الموجود، في باطن، المتحرك، ينتظر. الاستشعارات، الأولى، تتكامل.

كان الصوت آدمياً، آلياً، إنسانياً، حديديا، صافياً، مخدوشاً.

صرخت متلوعاً:

- أخي، يامعود. لحك لي الله ينطيك.آني بدخلك.

- الواحد، الموجود، في، باطن، المتحرك، ينتظر. الاستشعارات، الأولى، تتكامل.

ضربت على زجاج النافذة:

- أشعل الضوا أخي، الله يخليك. راح أختنق.

سكون. ثوان قليلة وامتد من الأفق خيط من الضوء الأزرق الخافت، أعاد إلى أنفاسي. هربت الظلمة من حولي، إلا أنني مازلت لا أرى شيئا.

– الاستشعارات، الأولى، تكاملت. الواحد، يخرج، من، باطن، المتحرك.. وازداد الضوء شدة.

وانقشع الضباب عما حولي. رأيت حائطاً أملس يقوم على جهتي اليسرى.

– الواحد، يخرج، من، باطن، المتحرك.

دفعت باب السيارة ففتحتها ثم نزلت وهتفت:

– أرجوك أخي. ماكو حاجة لكل هالتشويشات. أخوا كل ماتردون، وخلوني أرجع لأهلي. إني لا شفت ولا سمعت.

– الواحد، يقف، حذاء، القائم.

– أرجوك.. سيدي.. آني ما عندي سلاح ولا بطيخ. خلوني أرجع لأهلي..

– الواحد، يقف، حذاء، القائم.

– شنو قائم، مولاي؟

صمت قصير:

– الواحد، يسير، نحو، النابض.

وبدأ بموازاتي، في الحائط، ضوء يخفق كأنه يشير إليّ. سرت ببطء. كانت أقدامي ثقيلة، وكنت أجرها جراً. وصلت لاهثا، حيث الضوء النابض فتوقفت. لم أسر إلا بضع خطوات معدودات، وها أنذا ألهث كمن ركض ميلين! ماذا حل بي يا ترى؟ استندت على الحائط بظهرى، فاختفت إشارة الضوء حالاً.

– الاستشعارات، الزمنية، الوظيفية، تتكامل. كانت هنالك، أمام ناظري، على بعد لم أقدر على تحديده، منابع لأشعة ملونة تبعث بخيوط نحوي؛ أراها تتقدم وتلمسني ثم تحيطني وتضغط على بعض المواضع في جسدي.

كنت متعبا وموضوعا لدراسة من نوع خاص.

– من فضلك أخي، آني شخص مسالم، مالي علاقة بأحد. آني شخص مستطرق ما أدري شلون الله وكعني بها لورطه. أرجوك افهمني.

أحد الخيوط الضوئية أحسست به يمسك برآسي ويدور حوله عدة دورات غريبة، ثم يمتد أمامي فيصير أسطوانة لامعة أخذت تتدحرج بنعومة على جسمي.. من أعلى الجبين والصدر حتى البطن

وما أسفل البطن ثم تنزل حتى القدمين. عادت بعد ذلك، خلال صمت مميت، فبدأت تتصاعد ببطء، توقفت لحظات أمام موضع العورة ثم استمرت في صعودها حتى وصلت رقبتي. أردت أن أتكلم مرة أخرى متوسلا حينما شعرت بلسعة دقيقة في أعلى رقبتي على اليمين قريبا من أذني. صرخت:

– آخ، شنو هاي؟ الله يخليكم أخوان، تره آني.

قوطعت:

– الاستشعارات الجسدية، تتكامل.

– مولاي، آني شخص صاحب عائلة، ما إلي علاقة بأي جهة حزبية أرجوكم افتهموا منو آني.

أنطفأت الأضوية فجأة وغرقت من جديد في بحر من الظلام الأسود لمست موضع اللسعة. كان متورما بعض الشئ. كنت خائفا، متضايقا، غير قادر حتى على متابعة الحديث.

كم وقت الظلمة الداكنة؟ لا أدري. إلى الأزل، ربما ولكن تدريجيا وبعملية سحرية، أخذت تنبجس من كل الأطراف المحيطة

بي، رذاذات نور وردية في زرقة خفيفة، حتى أضاء المكان دون يصل بصري إلى حدوده. كان الحائط خلفي. ضغطت عليه عدة مرات، أما الجوانب فلا يميز منها غير ضباب لا يتحرك.

ثم.. ثم حضر هو أمامي. تكون بخفة مثل غيمة، مثل ضربة شعاع.

كان على بعد أمتار. إنه آدمي، لاشك في ذلك. أقصر مني وأشد نحولا، ويبدو كأنه عار والعياذ بالله، ولولا هذا الصندوق يرتبط إلى وسطه:

– أحييك.

كانت عيناه نفاذتين وسط وجه هضيم شاحب في زرقة. هتفت:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أهلاً وسهلاً أخى. مرحبا.

لم يكن عاريا، كان يخفي جسده الناحل بقماش مطاطي يلتصق عليه حتى يبدو كأنه عار وكان ينظر إلي وذراعاه الطويلتان مسبلتان إلى جانبه:

– أنت، تتكلم، العربية ..

– نعم، طبعا مولاى. آني عربي بغدادي عن جد.

– أنت، تتكلم، العربية، بأنفسها، نادرة.

كان يتحدث ببطء شديد وببرود. استوضحته:

– نعم، مولاي؟

بقي ينظر إليّ كأنهلم يسمعني. نظرات جامدة إلا أنها لمست قلبي بشكل ما. عدت أسأله:

– العفو، مافهمت.

– أنت، تتكلم، العربية، بنغمة، خاصة.

– نعم، مولاي، هاي.. أعني هذه هي اللهجة العامية التي يتكلم بها أهل بغداد.

– بغداد؟

أخافني سوء هذا، وأردت أن اندفع في الكلام. لكنني تماسكت وعدت أتكلم معه بالفصحى:

– ألسنا في بغداد ياسيدي؟

هل ابتسمت عيناه.. تانك النقطتان السودوان العجيبتان؟

– نحن، في م. أ. ر. ع. س. أكنتم، تتكلمون، هكذا؟؟

اضطربت:

– شنوم. أ. ر.. . ما أدري شنو؟ العفو مولاي، ما معنى هذه العبارة؟

– إن، في لغتك، التى، كنت، تتكلم، بها، الكثير، من، لحبور والألوان.

– إحنا وين مولاي، الله يخليك؟ العفو، أين نحن ياسيدي؟

رفع ذراعه بهدوء ولين:

– انتظر.

أخذ يعبث في أزراره أمامه يحويها الصندوق الذي كان يحيط وسطه

– كلا. النتيجة، سلبية. جدث، محنط. لا حياة. كلا.

ورجعت ذراعه بعد ذلك مسبلة إلى جانبه. كلمته:

– سيدي، أنا متعب ومضطرب وأود العودة إلى أهلي. لقد مررت بهذا الشارع صدفة والله. كنت أظن أن مخزن الدمي يقع فيه، فإذا بي أقع.. هنا.

كان رأسه صغيراً خالياً من الشعر وكذلك وجهه:

– لا أستطيع، أن، أساعدك، أكثر، مما، فعلت. لقد، أعطت، الاستشعارات، ما يكفي، عنك. إن، تاريخك، انقضى.

– سيدي، أرجوك أن تفهمني. لقد خرجت من داري في سيارتي التي لا أدري أين هي الآن، لأشتري لعابة. .. أعني دمية لابنتي الصغيرة صبيحة. هذا هو كل ما في الأمر. أنا لم أجئ هنا قاصدا أي شيء آخر.

– إن، تاريخك، قد، انقضى. فكر، فى، ذلك.

– أنا لا أفهم منك شيئاً. ماذا تريد أن تقول؟ هل تعني أني مت؟ أأنا ميت الآن؟

– كلا. لقد، أعطيت، التكوين، أخباراً، غير، صحيحة، عنك.

هذا، يمنحك، وقتاً، قصيراً فقط. إنهم سيعرفون، بالتأكيد.

– سيعرفون.. ماذا؟ ساعدني ياسيدي الرحيم.

– أستطيع، أن، أعطيك، الحقائق.

– أية حقائق ياسيدي؟

لبث ساكنا لحظات، اكتسي فيها وجهه الأملس مايشبه الجد الصارم الحزين:

– أنا، أخبرك، بأننا، في، مطلع، الألف، الثاني، بعد الحرب، الذرية، التي، فجرها، معاصروك.

– شنو؟ شنو؟ ماذا تقول؟ ماذا قلت ياسيدي؟

– كنتم، تملكون، قابلية، واسعة، للعيش، الهني. جنونكم، بلغ، مستوى، يفوق، وضعكم، الطبيعي. كنتم، تجهلون، المدى، الحقيقي، للتعاسة. لقد، عملتم، كل، شيء، بمفردكم.

– والحرب، ياسيدي؟ والحرب، من بدأها؟ ومتى؟ ولماذا؟ وهل تتحدث عن وقائع تاريخية أم أنك تريد أن تخيفني فقط؟

– أنت في ميزان منطقي قديم. نريد أن تنقذ عدالتك الإنسانية في بشر يفنون كلهم. لقد فجرتم العالم. نحن أحفادكم صرنا فئرانا. نحن

نعيش تحت الأرض لنحتمي من الموت. لسنا نخاف الموت. أعلم هذا جيدا. نحن فئران البشرية نحب أن نموت.

رفع ذراعه اليمنى النحيلة الطويلة وأشار إلى:

– إننا، تعساء، جدا.

– لماذا ياسيدي؟ رباه، أحصل كل هذا حقا؟ وماذا جرى.. لنا؟ لأهل الأرض أولئك؟

بقي ينظر إلي وهو يخفض ذراعه:

– لقد، انقلبت، بكم، الأرض، وتلاشت، الأمكنة. أنت، لم، تغادر، مدينتك، تلك، بغداد. إنما، هي، تحت، الأرض، تسمى. م. أ. ر. ع. س.

– ألازلت في بغداد إذن؟ أستطيع.

وأسكتتني ملامح الوجه الشاحب الزرق. كنت مثقل القلب والروح.

يحزن أسود لا يحتمل. عدت أتساءل:

– ألا أمل لي ياسيدي برؤية أهلي ثانية؟

فترة صمت ذي معنى. هتفت فجأة:

– ولكن ماذا جرى؟ ماذا جرى لكم؟ ولم أنتم تعساء إلى هذا الحد وأنتم تتقدمون علميا؟ لماذا لا تعيدون بناء صرح الحضارة مرة أخرى؟

– الحرب، بدأت كي لاتنتهي. نحن متقدمون في بعض العلوم، ولا نستطيع أن نعمل كل شيء. إننا لا نعلم ماجرى حقيقة على الأرض ما نزال بعد كل هذه السنين نجهل ما جرى.

بمقدورنا، أن نحمي أنفسنا فقط من الأهوال التي ما برحت تتطاير في الأجواء والأرضية لقد، حرمنا، ضوء الشمس، والأزهار، والهواء، النقي. كل، شيء، عندنا، مصنوع. إننا، فئران بشرية، متقدمة، علميا. أنت، تراني. أنا لست، ذلك، الإنسان، الذي تعرفه. لقد، حدث، لنا، بعد، مئات، السنين، تحت، الأرض، أن، فقدنا، لذة، الحياة.

– ليس هذا بفاجعة على كل حال. نحن أيضا مللنا الحياة أحيانا رغم الشمس والأزهار.

- أنت، لاتفهم، منذ، أكثر، مرة، عشرة، أجيال، أصيب، البشر، بما، يوازي، حربا، ذرية، أخرى. لقد، فقد، الرجال، في، محيطهم، الفأري، هذه ارتعاشة الحياة التي كانت تأتيهم في علاقتهم، الخالدة يالإناث.

- كلا. كلا. لا تقل هذا. إنه أمر لا يصدق ولا يمكن احتماله أبدا.

- أراك، تسخر. إنك لا تستطيع، أن، تتصور معني، ذلك إنه، الفناء، البطيء، المحتوم. إننا، لا نجد، معهن، أي، فرح، أو متعة، أو لذة. صار، الأمر شاقاً، مؤلما.

- وماذا تفعلون؟

- إننا، نتدنى، ونزداد، انطماراً، تحت، التراب. كل، شيء، يفقد، معناه، تدريجيا، ما تبقى، من، روائع، فنية، وكتب، الأدب، تأكلها، الجرذان. برعايتنا.

- وكيف حدث ذلك يا إله السموات؟

- لم، نعرف، حتى، الآن، هوية، الرجل، الذى، عانى، صدمة، التجربة، الأولى. نعرف فقط، أنها، وقعت، فى، الجيل، العاشر،

السابق، أو قلبه، بقليل. إنه، الجيل، الذى، كاد، يفنى، لكثرة، حوادث، الانتحار.

كنت مذهولاً وأنا أستمع إلى كلام هذا الإنسان الذي أخذ يظهر لي كالجرذ الكبير. نسيت نفسي وما أنا فيه، ونسيت ما قد ينتظرني وعدت أسأله منبهراً:

هل حصل تشويه من نوع خاص في أجسامكم بسبب الإشعاعات النووية والظلام؟

مرت على وجهه، هنية، علائم ارتياح مبهم:

– أنت، تصدق، إذن، أنا، أخبرك، أن، الحياة، البشرية، تغيرت، كلياً. إنها، تنحدر، نحو، الأسوأ، ببطء. نحن، الرجال، فقدنا، كل، شيء. بقي، أن يؤخذ، من، أجسادنا، هذا، السائل، الذى، بتجمع، ثم، ينهمر، بغباء. إننا، حيوانات، تربى كي تنتج كمية معينة من السائل الحيوى.

– ما هذا، ياربي ؟ ومن يعمل بكم هذا؟

– الإناث. إنهن، لم، يضعن، شيئا. وهن، يزددن، جنوباً واصراراً، مع، الزمن، على، ابتعاث، الحياة. إنهن، يصنعن، البشر، باستخدام،

الرجال. الرجال، هولاء، تعساء، ولايكرهون؟، الموت. لم، يبق، أي، معنى، لأى، شيء توارت، القيم، وتساوت، الأمور.

ولهذا، ثار، الرجال، عدة، مرات. كل، الثورات، أخمدت، لأن، الرجال، لايملكون، الحماس، للاستمرار، حتى، النهاية. إنهم، لايعرفون، لماذا، يعيشون. لا أمل، هنالك، لهم، مطلقا.

– والنساء؟ أين هن؟ ولماذا لم يفقدن أي شيء؟

– لم، يثبت، علمياً، وتجريبياً، أنهن، فقدن، شيئاً، يخص، تلك، الارتعاشة، اللعينة. إنهن، موجودات، وهن، يبحثن، عن، أمثالك انت، ستراهن. إنهن، مخلوقات، بلا رحمة، ولا إحساس. أنت، ستراهن. بالتأكيد.

– آني؟ أنا؟ ولم أنا بالذات؟

كنت أصرخ دون أن أريد. تملكني الرعب من كلماته، الرعب من أني أنا الآخر، منحشر بين مخالب هذه الكارثة:

– أنا ياسيدي العزيز، أستحميك عذراً..

وصمت. لم أستطع الاستمرار في الكلام. أمسكت بخناقي عبرة لأتوقعها. سكنت هنيهات:

– أنا لا أريد أن أرى أحداً. حتى النساء لا أريد أن أراهن. أنا أتألم ياسيدي.. يأخي في التعاسة، وبودي..

توقفت ممسكاً بصدري:

– بودي أن ترأف بي وتساعدني للعودة إلى.. إلى فوق.. إلى الأرض.

– لماذا، لاتريد، أن، تفهم ؟ لقد، أجرينا، عليك، الاستشعارات، الأولى، لكي نتأكد بأنك غير، ملوث، بأشعة، كيف، يمكنك، أن، تعيش، هناك؟ ألم، أقل، لك، إن، الأماكن، تلاشت، من، الوجود؟ وإن، عالمك، وأهلك.

كان يتكلم بنفس اللهجة البطيئة الجامدة، ولكنه _ بكيفية ما_ جعلني أشعر برغبة شديدة في البكاء. لا أدري كيف ادركت ما كان يقوله. لم يكن أمراً مفهوماً، يقبله العقل؛ ولكني أدركته بحواس أخرى تكمن في أعماق نفسي، في دمي، انخرطت باكياً، واضعاً يدي على وجهي.

أكنت أودع وجوه أحبتي الذاهبة إلى الأبد؟ أم تلك المجالي المزهرة، المنورة من أرجاء وطني التي أحسست أنه ينعاها لي؟ سمعته:

– أنت، تبكي. لن، تبقى، تعيساً، إذن.

أنزلت يدي. كان واقفاً هناك كما رأيته أول مرة، ينظر إلي. تبادلنا النظرات. لم يكن يقول غير الحقيقة. إلهي.. ما أعظم شقاءه وشقائي!

مسحت دموعي بسرعة وخجل. سمعته مرة أخرى:

– أعلم بأني، أردت، أن أساعدك.

وكان يتراجع وفي عينيه لمحات من عدم الرضا والانزعاج.

....

طرق أذني حفيف من حولي ملأ المكان؛ بدأ النور إثره يشتد ويميل إلى الحمرة شيئاً فشيئاً، مثل صباح بنبلج. أحسست بارتياح يساورني رغم اعصابي المتشنجة. أردت أن أستوضح من صاحبي عما يحدث، فرأيته يرفع ذراعه اليمنى وقد ازدادت على وجهه علامات الضيق.

– عم كان يحدثك هذا المهوس بالموت؟

كان الصوت نسائيا رخيماً، تتوثب فيه البهجة. التفت. كانت هناك هتفت:

– سبحان الخلاق العظيم!

ضحكت يالله!

– شكراً.

كانت، في ضباب بلوري، مشرقة الوجه تبتسم، وهي في ثياب هفهافة تكشف بخجل عن منحنيات جسمها. كلمته دون أن تلتفت إليه:

– ستؤخذ منك جرعتان إضافيتان. فإذا بقيت على قيد الحياة بعدهما، ستنقل إلى صحراء ما وراء البحر الميت. انصرف.

ثم توجهت بالحديث إليّ:

– دعني أعتذر لوقوع خطأ في التقدير. أنت ضيفنا، وقد جئت إلينا، ونحن نرحب بك في هذه المدينة السعيدة.

كانت تتكلم بطلاقة وبنوع من الرخاوة المثيرة:

– أنت من عالم نحلم به دائما وأنا أريد أن أثبت لك أن كل ما قيل لك لم يكن صحيحاً على الإطلاق. أنت ترى، أننا لا نزال نشكو من كثرة المرضى العقليين عندنا. تعال.

وأشارت بذراعها البضة إلى جهة من المكان. كانت ملامح جسدها الفذ تبين لعيني المتعبتين لحظة ثم تختفي. النهدان العاليان ولون الحلمة الداكن ومنخفض البطن وما تحته. أشياء كالسراب، جميلة شهية تسلب اللب بلعت ريقي:

– ياسيدتي.. الجميلة، لقد جئت صدفة وبغير قصد سيئ. كنت أبحث لطفلتي عن دمية في أحد المخازن بهذه الأطراف من بغداد، ولم أن أزوركم.

– طفلة! بغداد! يا للأسماء المثيرة للخيال. أنت تنجب؟

– أحيانا ياسيدتي.

– آه!

وجذبت ما تستتر به إلى صدرها، فبرزت استداره الحوض الواسعة، وتقدمت قليلاً مني. كنت مثل مراهق، تشتغل في أحشائي

رغبة محتدمة كالنار، وكنت مضطربا، قلقا، حائرا. قالت وهي تشير مرة أخرى إلى جهة من المكان:

– تعال إذن. إلي أنا المؤولة هنا.

لم أتحرك. لم أستطع. قلت متضرعاً.

– أيمكن أن تساعديني ياسيدتي كي أعود إلى أهلي.. إلى زوجتي وأطفالي؟ لقد حدثني السيد المحترم عن أمور وافتراضات مفزعة وأنا..

وسكت. رأيتها تتردد:

– ولم لا؟ ولم لا؟ تعال معي، تعال. لماذا لا تتحرك؟

ثم اقتربت أكثر فأكثر ولمستني بأناملها لمسة خفيفة. كنت غائم الفكر والنظر، لا أقدر على رؤيتها بوضوح، لكن عينيها بدتا لي عسليتين خضروابن. أمسكت برسغي. ناعمة كانت بشرتها، دافئة:

– لا تتذكر أحاديث هذا المخبول. إنه يهرف على الدوام بما لا يعرف. ثق بي أنا فقط، كما يفعل الجميع.

– أنا، أودعك، بحرارة من م. أ. ر. ع. س.

كان لا يزال هناك، على مبعدة أمتار، يحيطه غبش أزرق ولا يرى منه غير حدود قامته النحيلة وغير التماعة العينين الصغيرتين. سألته:

– ماذا تعني ياسيدي؟

– م. أ. ر. ع. س.؟ إنها، المدينة، التي، رحل، عنها، السرور.

وأشار نودعاً وهو يرفع ذراعه بوهن ثم اختفى.

شعرت بها تسحبني برفق هامسة:

– تعال.

كانت رائحتها..

انتوني – آب ١٩٨٤

(فرنسا)

القنديل المنطفئ

لم تتحرك الستارة السوداء، ولم يزل القسم الآخر من الكوخ هادئاً. كان الهواء عاصفاً في الخارج وقطرات المطر تضرب سقف الحصير، لكن السكون بقي خانقاً كل شيء في الكوخ الرطب. سمعهما يتكلمان منذ ساعة طويلة، أمه وأباه، فواتاه شعور مؤلم خفي بأن سيقع بعد قليل. كان جاساً على السرير، يحيط رجليه المثنيتين بذراعين ترتجفان بين حين وحين.

فرقعت السماء فوقه، فرفع نظره إلى الأعلى. رأى القنديل الصغير يرسل وهجاً أحمر ملتوياً والدخان يندفع منه سقف الزاوية. منذ خمس ليال وأمه تملأ القنديل نفطاً وتشعله بعد غروب الشمس. ويلبث هكذا في زاويته العالية حتى ينطفئ أثناء الليل. رآه ينطفئ أربع مرات.

ترتعش الفتيلة قليلا ثم تخبو وتترك شعلتها تبعث دخاناً أبيض كثيفاً. وسيراه ينطفئ هذه الليلة أيضاً. سهرت "هيلة" معه ثلاث ليال متوالية ولم تقاوم أخيراً. لعلها شعرت أن شيئاً غامضاً يمنع عريسها عن إتمام عمل الرجل العظيم. كانت شاحبة الوجه واللحاف الأرجواني يغطيها إلى رقبتها. لم يكلمها قط خلال هذه الليالي، كانت سراً

مزعجاً يملأً قلبه رهبة. سمع أمه تقول إن عمرها ثلاثة عشر عاما. كانت تحدث أباه.

سمعهما يتحدثان منذ ساعة. أحس برجفة في ذراعيه. خيل إليه أنه يرى الستارة السوداء تتحرك. كان القنديل يصبغها بحمرة ضوئه وثنياتها تتموج تحت عينيه. حاولت أمه بصوتها المخنوق أن تمنع أباه عما تتهجسه منه. "جا انجوز من الشرف يابوبيار؟". وكان جبار أيضا يتهجس من أبيه أمراً كريهاً. سمعه يجيبها: "ولج ياخايبة البين ماردناها إلى؟ مارحنا خطبناها؟ فصرخت أنه صرخة مبحوحة: "ومانطو كياها. تناوشت قريشاتي تشتري بيهن مرية. ومانطوكياها يابوبيار. موش آني مرتك؟".

كان جبار مضجعا آنذاك في فراشه فقعد منضتاً. وصلت أذنه غمغمة أبيه تختلط مع الرعد ولم يفهم نا قاله لها. كانت الريح تهدر كالماء الجاري العنيف والسماء تقصف. ساد بين أبويه صمت قوي نفسه الشعور المبهم بما قد يقع. هل سينهي أبوه، هذه الليلة، ما يختبئ وراء عيونه الضيقة اللامعة؟ لم يكلمه منذ جاءت "هيلة" إلى كوخهم. أخذ ينظر إليه من وراء طيات وجهه الأسمر النحيل. كان طويلاً جداً يرجف بهيئته قلب جبار. لو دخل الآن لأضطر أن يحني

رأسه. ولكنه.. هل سيدخل؟ هل سيدخل عليهما؟ انتبه فجأة إلى القنديل يرتجف بعنف في زاويته العالية. بقي يتأمله.

كانت أنفاس "هيلة" منتظمة عميقة، وكان يسمعها رغم نقرات المطر وهدير الريح. ثلاثة عشر عاما؟ ماذا يعمل بهذه لطفلة؟ إنه لم يردها. ذهب أبوه يخبطبها لنفسه فرفضوه فأخذها لجبار ابنه. كانت نائمة، مغلقة العينين ووجهها أسمر في صفرة شديدة، كم تبدو ضئيلة، وهي لا تصغره بغير عامين. وقع شيء ما في الآخر، فتصلبت أعضاؤه، والتفت بسرعة إلى الستارة السوداء. كانت ساكنة متمرجة الثنيات. سمع وقع أقدام خفيفة يستمر فترة ثم ينقطع. قرقعت السماء بشدة وتدحرجت الصاعقة ثم انفجرت بصوت رهيب. كانت الريح تهدر. لو حدث شيء فظيع لما سمع أحد به في هذه الليلة الهائجة واخترقت جسد جبار ارتعاشة فضم ركبتيه إلى صدره. هل سيقتله؟ عادت الأقدام تطأ الأرض بخفوت. كأن شخصاً يسير حافياً كاللص. كان قلبه يخفق بسرعة وعمق، وأنفاسه تتقطع كلما أرهف سمعه. لا طريق للهزيمة. ولكن ماذا سيحدث؟ أمن المعقول أن يقدم أبوه على.. آه، ها هي الستارة السوداء تتحرك. باغتته موجة متصلة من الارتجاف فضغط بشدة على قصبة رجليه.

أحس بمثانته تكاد تنفجر. هل سيقتاه؟ كانت شعلة القنديل تتلوى إلى جانبه وثنيات الستارة السوداء تتماوج أمام عينيه الثابتتين. انزاح الستار قليلاً من زاويته اليسى، هل سيقتاه؟ وبروز وجه أصفر قاتم الصفرة.

كان وجه أبيه بطياته العميقة ولم يكن وجه إنسان حي. كانت عيناه صغيرتين تلمعان بصورة هائلة. لقد جاء ليقضي عليه. بقي ساكناً يحدق في عيني جبار. أحس بنظراته مسامير تثقب رأسه. ثم اختفى فجأة كالشبح، وعادت الستارة السوداء تتماوج أمام جبار. أراد أن يصرخ ليوقظ أمه، ليوقظ الجيران، ليوقظ العالم، وتأوه. تقلبت "هيلة" على جنبها الأيمن. كانت أطراف شعرها تبين حمراء من تحت الجتاية. أول أمس صبغت شعرها بالحناء، هي وأمه وأخته. سمع طقطقة في الخارج. كانت نقرات المطر مستمرة متتابعة على الحصير، لكنه ميز بوضوح طقطقة في الخارج. لابد أن الهواء أوقع شيئاً. أم لعله هو، يفتش عما يحطم به رأس جبار؟ أحس بفمه وحلقومه يابسين. حاول أن يبلع ريقه فلم يستطع.

جرعة ماء واحدة قد ترد له الحياة. أدار عينيه حوله. كانت جدران الحجرة الطينية سوداء متعكرة وتحت القنديل ظلام دامس.

رأى مكاناً في السقف يسيل منه الماء ببطء. الأرض قربه عارية وصندوق "هيلة" الحديدي مفتوح الباب كفم الوحش. لا حركة هنالك. هل عاد إلى فراشه؟ شعر بألم في معدته.

كأن أحدا يخزها بدبابيس جارحة. لم يتعش الليلة. لبث يتفرج عليهم يأكلون، تحت ضوء اللمية، الفضلات التي أرسلها الجيران، دون أن يدفعه الجوع إلى مشاركتهم. لم تعدبه رغبة لطعام والليل قادم. ومن العبث أن يفتش الآن في الكوخ عن شيء يأكله. لا طعام يبيت حتى الصباح التالي. أمسك بأحشائه ودفعها بقوة. كانت أمه تشد وسطه بخرقة كلما أراد طعاماً لا يوجد. تشده شداً عنيفاً ينشر الراحة في جسمه. تعبت رجلاه فعاد إلى إحاطتهما بذراعيه. نظر إلى الستارة السوداء. ترى إلى أين ذهب؟ كانت أنفاس هيلة خفيفة لاتسمع، وصفحة وجهها وأذنها تبدوان ناعمتين.

وكانت شعلة القنديل ساكنة مرتفعة كالمنارة المضيئة. سينطفئ القنديل بعد ساعات طويلة. أحس بأجفانه تثقل وهو ينظر إلى القنديل. كم هو متعب مجهد لهذا السهر الذي لا يعلم سببه! ورسه يرن ويهدر مع صوت الريح. آه، أهي الريح التي عبثت بالمنارة المضيئة؟ تلوث الشعلة فجأة وتضاءلت. هل يتنطفئ؟ ثم شعر بهواء

بارد يمس وجهه. كانت الستارة منكشفة وإنسان طويل يقف أمامه. رفع نظره سريعاً، ماذا سيعمل به؟ رباه، هل سيقتله؟ "شو جاعد مال الجلب؟" أحس بقلبه يسد أذنيه بدقاته. كان صوت هذا الإنسان غريبا لم يسمعه من قبل. هو ليس أباه.

كلا، ليس أباه. وكان يحمل عصا غليظة طويلة في يده اليمنى وعيناه تلمعان كالبرق. أراد أن يكلمه، أن يتوسل تحت قدميه، فلم يسعفه لسانه الميت. ورأى العصا ترتفع عالياً، إنه يستعملها لطرد الكلاب، ثم رآها تهبط وهي تشق الهواء بسكون.

انفجر رأسه كانفجار الصاعقة وعميت عيناه. أحس، بعد لحظة، بجسمه يتكوم قرب الصندوق الحديدي، على الأرض العارية الرطبة. لم يضربه غير مرة واحدة، بالعصا التي يطرد بها الكلاب. هو أيضا مثل تلك الكلاب السائبة. كلب مجذوم قذر صغير حقير. يرفسونه بالحذاء ليأخوا قطعة العظم التي لا يريدها. كان رأسه كالدملة الكبيرة، يؤلمه من كل جهاته، وذراعه تحت ظهره مطروحة على الأرض المشبعة بالماء.

ماذا يجري هناك، في ذلك الكهف المظلم؟ شعر كأنه في عالم آخر، عيناه مغمضتان وأذناه لا تسمعان شيئا، هل انطفأ التنديل يا

ترى؟ كانت ذراعه تؤلمه وتبعث برداً في أنحاء جسمه. بذل جهداً كبيراً ليسحبها من تحته، شعر بأصابعه المتثلجة تمر على وجهه. بدأت بعينيه تفركهما ثم ارتفعت إلى جبينه.

كانت أصابعه باردة عليها قليل من الطين. أدخل إصبعاً في أذنه وحركه وهو فيها. طنت أذنه، ومر بها هدير ثم سكن. خيل إليه أنه يسمع حركة نيفة على مقربة منه. سيعاود ضربه، سيقضي عليه هذه المرة. جمع قواه وقلص أعضاء جسمه كلها فأجس بنفسه قاعداً على الأرض. فرك عينيه بجنون ثم فتحهما. كان القنديل يضيء بشعلته الحمراء فراشهما.

رآهما كالثياب المختلطة، كان فوقها وكانت "هيلة" في انهيار قواها الأخيرة تنتزع صرخات قصيرة خافتة من فمها المغلق بوحشية. كان منظرهما كابوساً مريعاً. السرير يهتز بشدة ويبعث أصواتاً تختلط بهمهمة غريبة لم يعرف مصدرها. شعر برعب هائل يجتاحه فجأة، أراد أن يصرخ وكان جسمه يرتجف ورأسه يدور.

لـم يـدرك شـيئاً سـوى شـناعة مـا يجـري تحـت بصـره. سـيقتلها، سيمزقها قطعاً. ثنى رجليه ثم قام فارتني بظهره على الحائط. كان الرعب يعصر قلبه، وشعر حال اعتداله بماء دافئ يبلل فخذيه.

لـم يستطع أن يحول عينيه عنهما. كان القنديل يرسل ضوءاً أحمر كالدم المتجمد، والثياب تتحرك بسرعة ثم تهمد لحظة وتعود إلى حركتها المخبولة. رأى، بين اضطراب الملابس العنيف وصرخات "هيلة" وغمغمة الوحش، ساقاً ترتفع كاالجثة المسلوخة في الهواء، ثم تلتها صرخة حيوانية عالية. كان الحائط وراءه بارداً متعكراً، والمطر ينقر سقف الحصير. حاول أن يصرخ، وكانت الريح تهدر وتهدر من بعيد.

بغداد ١٩٥٤

الدملة

جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل، حينما خرجا من بار "المشرق" وسارا بمحاذاة الرصيف وهما ينفثان الدخان من أنفيهما. كان هواء الليل نقياً. ولم تكن خطواتهما الثقيلة مضطربة. سمع صاحبه يقح بعنف ثم يبصق وهو يكلمه:

– "وين سيارتك أبو حسين؟"

أراد أن يجيبه بأنها ليست معه:

– "ما أدرى. قريبة يمكن".

لم يشعر برغبة في مرافقته. دار بعينيه مفتشاً عن السيارة؛ كانت على مبعدة أمتار. اللعنة، وسار إليها يتبعه الظل الأسود. دخلاها وأدار المفتاح ثم اهتزا مع اندفاعاتها المتقطعة. لامس الهواء وجهه بارداً ناعماً، وتراخي جسمه مع حركات السيارة الرتيبة. رآه من طرف عينه مكتوما جنبه كالقنفذ، لا صوت ولا نأمة، سوى الدخان البليد.

كان الشارع الخالي طويلاً تغيب أنواره في الأفق، والأشجار على جانبيه تمر سريعة خفيفة. شعر بمثل تيار في نفسه ينساب مع السيارة والأضواء والأشجار والليل؛ الحياة الماضية والذكريات والأحلام والصور المبهمة. لو كان وحيداً، مع هذه المشاعر الناقصة! كلم صاحبه:

- "وين صاير بيتكم أبو علاء؟"

فاعتدل كمن لسعته أفعى:

- "شلون عيوني أبو حسين؟ ماداسمع".

- "وين توصل؟"

- "كيفك أبو حسين. آني ماعندي شغل. للكرادة".

- "شكو عندك بالكرادة؟"

فانفجر ضاحكاً ثم يقح ويشهق:

- "ما عندي شيء".

وبصق بقوة.

– "بعدك ويه العجوز؟"

عادت الضحكة المتشنجة والشهقات ثم البصقة القوية:

– "شنسوي يابو حسين، العيشة تنراد. تمام؟"

كان الشارع مظلماً أمام أضواء سيارته التأرجحة، ولم يكن يعلم من أية جهة يمكن أن يصل الكرادة. لو كانت معه لفهمت أنه لا يجد الطريق.

تتكئ بذراعها على طرف الباب وتنقر بأناملها على حافة الراديو، وقد تغنى أو تستمع إلى الغناء وهز رأسها ويهتز قلبه مع حركاتها. كانت ستكلمه بعينيها وتسمعه ألفاظاً لم تخرج من الشفاه. شعرها الأسود الطويل وعيناها الصفراوان.

– "تعرف أبو حسين، آني ما أشرب كل يوم. بالأسبوع مرة، مرتين. وراها يعجبني أرواح أسلم على الجماعة".

– "تبقى تسلم الليل كله عليها!"

فكاد يختنق بضحكة وبالدخان الذي ينفثه. لم يدر لنا قبلها ذاك المساء العطر في زاوية مظلمة من الحديقة. كانت شهية متفتحة.

شعر، وهي تكمله بما لا يدري، بنفسه ينحني ويمس فمها بشفتيه. لم يقل إنه يحبها، لم يكن يعلم ذلك؛ وكانت مندهشة بعض الشئ. ثم انسلا عائدين الي الدار بسكون. لم تخبر أمها، زوجته، بما جرى، وكان يريد، هو الشقي، أن يعطي لهذا الكتمان معنى ما.

رأي منعطفاً أمامه فاستدار استدارتين عنيفتين انفتح بعدهما الأفق في شارعٍ عريض مظلم. لم تفارقه آثار وحدته خلال الأيام القليلة الماضية. لا يزال متعباً من لا شيء، يحس بنفسه مفترساً. ظن حين رأي صدفة صاحبه هذا، أنه قد يستطيع بسهرة مع العرق والكباب أن يبعد الظل الأسود الذي يقبع فوق كتفيه. وشربا قنينة العرق خلال الساعات الأخيرة وأكلا أكثر مما تأكل الحمير وضحكا طويلا. وكان ستار الغبارة المسدل باستمرار على وجه صاحبه يذكره بعبث محاولته صب هواجسه في هذه النفس المغلقة.

كانت السيارة تنساب دون اهتزاز، والهواء البارد يعانق وجهه ويعبث بشعره، وكان الليل هادئا. لم تفزع حينما ميزت وجهه في ظلمة غرفتها الصغيرة، ولم تقل له شيئاً معيناً يتذكروه؛ وكانت ابتسماتها تخفي سراً مبهما. تسلل إلى غرفتها دون تصميم سابق بعد أن ترك ابنه وزوجته ينامان. كانت الدار ساكنة ولم يكن متردداً. أراد أن يتقن أنه

قبلها، مس شفتيها، وأنه لم يكن حالماً وأنها لم تكن شبحا. وأعطته، تلك الليلة، من شفتيها الناعمتين وملمس كتفيها سعادة وفرحاً لم يحس مثلهما من قبل.

حدثها بكلمات لا معنى لها عن أشياء لا يفهمها وكانت عيناها تتلامعان في الظلام أمام عينيه.

سمع صاحبه يتكلم:

- "شد كول أبو حسين؟ أني تره من أشرب آذاني تصير ثكيلة.

يمكن إحنا بعيدين شوية عن الكرادة"

خنقت قلبه تلك الذكريات فردد:

- "يمكن. يمكن. يمكن".

لو كان منفرداً في ظلام سيارته، مع السماء، مع النجوم، لأجهش باكياً ولأخرج حسرات قلبه مع كل دمعة ساخنة. ولكنه لا يمكن أن يريد هذا. ليس البكاء عادة مفيدة في مثل سنه.

- "عندك نار أبو حسين؟"

لم يكن قد رآها حين تزوج أمها قبل سنوات قليلة. وبقيت خارج وعيه حتى الأشهر الأخيرة، حين بدأ يشعر بوجودها الطيفي في حياته وبأنها عنصر لا غناء عنه في هذه الحياة. وكان ذلك مع إشراقات جسدها الفتى الأولى ومع الرؤى المحرقة لخطوط أفخاذها وخصرها وانحناءات رد فيها وصدرها. كانت تلك التعريات ابتذالاً لا مبرر له فتاة طائشة. ولم يبد أنها تقصد شيئاً، ولا كان بوده أن يقصد شيئاً هو الآخر.

– "عندك نار بالسيارة أبو حسين"؟ أريد أشعل الجكارة الله يخليك".

– "تفضل".

ولكنه لم يفهم ماذا يحدث له؛ ويوم صارح نفسه أنه يشتهيها وأنه لا يمتنع عن أي عمل خسيس كي ينالها، شعر أنه يغوص إلى أعماق مظلمة لا قرار لها. وكان حزيناً، حزيناً. إنها ليست هذه الفتاة الغريرة المقادة بعماء نحو الجنس، وهي ليست اشتهاءه وأحلامه؛ ولكنها الحياة والموت، النور والظلام. وكان مرتبطاً بها، يحس بمهانة وهو يرى حياته مهددة لسبب رخيص.

كان جو السيارة مضباً مليئاً بالدخان رغم الهواء البارد المندفع من الشباك الصغير. وكانت الحسرة، الصخرة المحرقة، المدية الحادة، تخدش صدره. إنها تنوج وتتلاطم مثل مياه البحر، وترتفع، من أعماق نفسه؛ ويشعر بالعبرة في أعلي صدره، في رقبته، فيصر بأسنانه ويضغط برجله على عتلة البنزين. لم يكن يفتش عن الدموع؛ إنها لا تغسل آلامه، وهو ليس معداً للبكاء.

– "الفرق ما يسوه. دقيقة لو دقيقتين. لويش هالسرعة أبو حسين؟ آني ما مستعجل".

سحب قدمه عن عتلة البنزين فأبطأت السيارة قليلا:

– "آني هم ما مستعجل أبو علاء".

كان صوته أجش غير ثابت:

– "لويش استعجل؟ هو جم مرة يموت الواحد؟"

– "شلون؟ ما داسمع أبو حسين. آني آذاني تصير ثكيلة وراء أول كلاص".

– "على الموت، على الموت دا أحجى".

- "شبيك عيوني أبو حسين؟ عندك سوء تفاهم ويه الأهل؟"

- "لا"

- "لعد لويش مقهور عيوني أبو حسين؟"

متى كان للموت سبب يفهمه العقل وتقبله النفس؟ ولكننا نقترب كل لحظة من هذه التجربة المجهولة؛ وحين علم بعلاقتها بأحد الرجال هبط قلبه بشكل مفاجئ وأحس أنه فقد الكثير من حيته خلال دقائق. لم يبق للموت غير أن تتكرر هذه الدقائق. ولم تبخل في الحق عليه بها.

وظهرت، بعد أسابيع من عملها في إحدى الشركات، الشفاه الملطخة بالأحمر القاني والعيون - وا أسفاه - الصفراء المثقلة بالكحل؛ وكانت تبدو منتصرة عليه. ولم تسكن ناره ولم يبق له غير أن يختار أيوأ أيامه.

- "أخويه أبو حسين، إذا حبيت نزلني من السيارة. آني آخذ تاكسي وراجع لبيتنا".

وأخبرته بضحكاتها العالية وانعطافات سيرها، وبتعريات ساقيها وابطيها، أنها تعبث بالحياة التي لا تفهمها، وبالقلب الضعيف المرتعش وبمهانته. بمهانته، بمهناته.

كان يضرب بيده على إطار الشباك الصغير ضربات خفيفة رتيبة وهو يتطلع بذهول إلى محط النور المتذبذب على أرض الشارع. وكان صاحبه ساكناً، يحدق أمامه هو أيضاً محاولا تمييز الطريق.

- "فد جكارة من فضلك أبو علاء".

- "حاضر عيوني أبو حسين".

وأسرع بإخراج واحدة قدمها له:

- "ماعندي نار أبو حسين. أنت عندك قداحة بالسيارة".

- "نعم. نعم".

- "يمكن لو تلفت على اليمنة نطلع على شارع الكرادة".

نفث الدخان فرجع على وجهه مع هواء الليل:

- "لو، إذا حبيت، بس توكف شوية، خاطر أخوك ينزل وياخذ تاكسي".

– "لويش لبو علاء، قابل ما اعرف دربى؟ شوية بس لا تستعجل".

– "لا عيوني أبو حسين. شكو عندي استعجل؟"

لماذا لا يدعه وشأنه ؟ ولم يجب أن يدينه معه، ولم يفعل شيئا؟ مثله، هو المدان إلى الأبد، لأنه لم يفعل شيئا؛ لأنه أراد أن يحقق الأشياء على طريقته الرديئة.

– "لا تلومني أبو علاء. آني أريد أوصلك للبيت، لكن الطريق شوية طويل".

– "نعم. نعم أدري".

– "آني أحب أبقى وياك. تعرف أبو علاء، صار لي ثلاث أيام".

صار لي أيام، ما أدري وين جنت.. ما أدري.

– "نعم، نعم أعرف. على اليسرة أبو حسين، على اليسرة ونطلع لي شارع أبو نواس. على اليسرة"

لم تضطره أن يختار نهاية لشقائه واضطرابه. كانت تعلم أمراً ما يبدو لها يقيناً لا يتزعزع، وكان ظاهراً أنه لا يدخل ضمن إطار حياتها.

وعبثاً، عبثاً كان يطرد تفسيراته لتلك المخابرات التلفونية المتكاثرة ولغياباتها المستطيلة ولشرود الذهن والارهاق. كانت تعلم أمراً مجهولا، لعله الحكم عليه بأنه شخص أقل نجمه. إلا أنه لا يستطيع أن يرضي بذلك. ومن خلال هروبها المستمر منه واحتجاجها بأتفه الأسباب كي تثور عليه وعلي أمها، انبثقت في ذهنه فكرة زيارتها الليلية.. بدت أول الأمر فكرة جنونية حمقاء لا جدوى منها، ثم نمت وتفرغت في ذهنه وقلبه كالسرطان الخبيث.

وانتهت، مع الأيام، بأن تمتلكه. التهمته مثل وحش جائع. لم يبق له مهرب، كانت الحد الفاصل والحمي المتمشية في أطراف جسمه. لم يشعر أنه ينتهي بعدها، ولكنه أحس عن يقين أنه سيموت لو لم ينقذها.

– "أبو حسين. عيوني أبو حسين، شوية على كيفك. الشارع ضيق والشط عالى. لو يش مستعجل الله يخليك؟"

انتبه إلى السيارة تهتز بعنف على أرض الشارع العكرة، ورأي مياه دجلة الطافحة تنعكس عليها أضاء الشاطئ البعيد. سحب قدمه عن عتلة البنزين، وغير من جلسته قليلا. كان رأسه يطن وعيناه

مجهدتين، لكنه لم يستشعر تعباً ولا رغبة في النوم. ودلو استطاع أن يغني أغنية حزينة على شاطئ مهجور، أغنية تذهب بها الرياح ولا يسمع لها صدى. سمع صاحبه يغمغم بشياء لم يفهمها ولم يرد أن يفهمها، وكانا يسيران بمحاذاة الرصيف والنهر. هل يجب أن نفهم الحياة جيداً وبعمق، أم أن نغنيها كما نغني أية أغنية حزينة لا معنى لها؟ ولعلنا، مع الألحان، نستطيع أن نعمل كل شيء.

ذلك الليلة الربيعية، قبل أيام، حينما انسل من غرفتهم إلى الحديقة ..

- "جكارة أبوحسين؟ آني تقريباً وصلت للبيت".

ولبث يتمشى ويستنشق الهواء الرطب كي ينعش قلبه المرتجف. كان ينتظر إشارة مبهمة لا يعرفها كي يمضي في سبيله. خيل إليه أن النجوم، في السماء السوداء، أشد لمعاناً من قبل، الأشجار الساكنة تخفي أشباحاً خلفها، ولم يدر ماذا يعمل بنفسه المتوحدة. وتتابعت الصور في ذهنه بغير معنى، بغير معنى، وضاقت نفسه مع خطواته المتثاقلة وتملكته الخشية من العبرة التي بدأ يحسها تفيض في صدره. إنها النوبة التي لا ترحم.

ستلفه هذه الموجة من العبرات بين طياتها وستحيله، مع الدموع الجارية، إلى صرصار مسحوق. أفزعته هذه الإشارة المفاجئة فأسرع نحو غرفتها. لم تستيقظ عندما وصل سريرها سائراً في الظلام، ولم تحييه حينما همس باسمها مرتين. وانتظر مع الخوف والخجل والمهانة، ثم لمس كتفها الناعمة العارية. وود، لحظة، لو كانت ميتة، لو كانت عاجزة عن إجابته، عن تكملة مأساته. وفزعت حينما تبينته وتراجعت وهي تخفي صدرها.

كان يراها في الظلمة الخفيفة، تقاطيعها المبهمة الجميلة وذراعيها المضيئتين، ما أراد أن يقوله لها، وأدرك أنه انتهى مع حركتها هذه. لم يبق له إلا أن يبدأ حيث انتهى، أن يبدأ نهايته.

وكان يكفي أن تلبث في وضعها ذاك، منكمشة بعيدة، كي ينصرف بهدوء ويقتل نفسه تحت أشجار الحديقة الساكنة، أما أن تصرخ لغير سبب، وأن تقفز كالشيطان هارعة الي أمها، فذلك لأنها رخيصة مليئة بالرذائل.

– "عيوني أبة حسين، الله يخليك. على كيفك".

ولأنه لم يستطع أن ينتزعها من نفسه خلال أيامه الأخيرة في وحدته الفزعة، ولأنه لم يتغلب على عبراته، هذا البحر المتلاطم، ولأنه لم يقتلع من أعماق قلبه تلك الدملة القذرة السامة، ولأنه يبكي الآن.

– "أخوية أبو حسين، دير بالك. الشط. دير بالك الله يخليك".

كان مرتمياً على عجلة القيادة وهو يحاول الانحراف بالسيارة نحو النهر. لم تترك له دموعه مجالاً للرؤية، وكان يحس، خلال تشنجات صدره العنيفة، إنه يفارق نفسه، يتجرد من الإنسان الذي كأنه لا مجال للعودة المهينة. ثم شعر بصدمة تهزه وبلطمة قاسية على صدغه. لم يفقد وعيه، وكان يسمع صاحبه يطلق صرخات عجيبة ويمسك قوياً بذراعه.

كانت السيارة تتقلفز فوق الرصيف بحركات مجنونة وخط المياه اللامع يرتفع من جهة لأخرى، لن يمكنهم أن يقولوا عنه شيئا، لأنهم وعالمهم ومواضيعهم، أشياء لا تتكرر. وكان رأسه يدور حينما صفعت السيارة ماء النهر فانشق ببطء وابتلعها. لم يخفه الصمت المميت الذي ران عليهما ولا الظلمة الخانقة. أحس بتخاذل في جسمه وهو يستشعر برودة المياه المتدفقة. لن يجدوا أثراً لهما بسهولة، وكان وحيدا.

باريس – ١٩٦٦

الأزهار

لم تدعني أفتح باب الشقة الخارجي بهدوء. استمرت في كلام كالصراخ المكتوم متظاهرة بأنها ثابتة الأعصاب:

– عند ذاك رأيتك بوضوح تام وأنت تفعل فعلتك الوحشية تلك بكل إصرار وتقدم لها الكأس وتنحني. رأيتك تنحني، تنحني أمام تلك المخلوقة الهرمة المجنونة.

وأنفاسها تتلاحق بسرعة والندبة على صدغها تزداد احمراراً، وهي تتجه نحو ذروة الهياج:

– أنت.. أنت تنحني أمامها وتقدم لها الكأس! ما هذا النفاق! أين ذهبت كرامة الرجال هذه الأيام!

وكان بودي، مثلها، وأنا منحن مكذا ومحشور لصق الباب، أن أعرف أين تخبئ كرامة الرجال اللعينة، والمفتاح يزوغ عن القفل والكرامة والرجال مختلطان في ذهني.

– آخ يا ربي، هذا أمر لا يحتمل أبداً ولا يطاق، وهم يقولون إننا نتقدم ونتطور، وإن الأخلاق ترتفع والنفوس.. آخ النفوس.. أية نفوس يا بشر!

ومع هذه النفثة الأخيرة استجاب لي القفل وتراجعت الباب على حين غرة فاندفعنا مهرولين إلى الداخل وانا أسمع لهائها يتبعني.

– لاتنكر. لا تنكر أي شيء. دع الإنكار لأنك لا تقدر عليه.

أضأت الصالة وأسرعنا نحو غرفة الطعام حيث اتفقنا أن يكون النزاع فيها. بدأت تدور، حالما صرنا هنالك، حول الكرسي الذي انكمشت جالساً عليه، شاحبة الوجه لامعة العينين:

– وكل ذلك، هل تعلم لماذا؟ وهل تعلم أين تكمن العلة التي تجهل وجودها في نفسك.. نفسك التي تعتقد، وأنت في هذا العمر، بأنها نفس قوية من تلقاء ذاتها ولم تتأثر بأي تأثير مني أو من غيري. وهذا والله عجيب، عجيب جداً إذا أردت أن نتصارح.

نزعت معطفها ورمته بعنف على كرسي ترجرج وعاد إلى موضعه! ولم أقفز للإمساك به لئلا يحدث ما لا تحمد عقباه، وكان على وعليها

أن نتحمل في ليلة الحسم هذه ساعات من النزاع الكلامي يشابه مواء القطط الحاد:

- وكل ذلك ضمن سلسلة.. سلسلة مترابطة طبعاً من الأعمال التي رصدتها جيداً وبدقة. لم أفعل ذلك عن عمد. أنا أرقى من هذه التصرفات كما تعرف. لقد وقعت أمام بصري فرأيتها. هذا هو كل شيء. وقعت كل تلك الأمور أمامي وانت لا تحس، لا تحس أبداً لأنك مشغول بأمورك التي لا أدري، بعد كل هذه السنين، كيف أصفها ولا كيف أبررها. أسمع، أنظر إليّ ألا تراني أحدثك! انظر إليّ حين أحدثك عن أشياء في غاية الأهمية. كلا.

ظنت أني أريد الكلام فرفعت يدها مشيرة إليّ أن أسكت:

- أول الأمر لم أفهم معني إصرارك على الذهاب إلى هذه الحفلة الثقيلة. نعم، صحيح أنه شريكك في المؤسسة، ولكن.. تذكر من جعلك شريكاً له. أجبني، من جعلك شريكاً له، أنت الذي لا تملك اية قابلية عقلية ! أنا. أنا. أنا. وبقودي. وأنت تظن أن مواهبك الإدارية هي التي جعلته يقبل. تباً لك ولموهبك الإدارية السخيفة فسألتها عما تعني. وقفت أمامي تمسك بطرف الكرسي وبيننا المائدة الصقيلة.

بدت لطخ الزينة الحمراء والزرقاء غريبة على تلك الطلعة الكاحلة الميتة:

– تسألني!

استدرت:

– يسألني عما أريد!

وأمسكت بشمعدان الزجاج ذي الشمعتين فطوحت به إلى جهة بعيدة فرنت الغرفة بضجة لا مثيل لها:

– يسألني أنا.. عما أريد! كأني خادمته.. كأني عبدته المطيعة.

كأني رهن إشارته متى ما شاء. يتلف شبابي؛ يأخذ، ويسألني عما أريد!

واقتربت من المائدة فضربتها بيدها ضربة عنيفة خمنت أنها آلمتها:

– أريدك أن تدفع. تدفع عما عملته بي، تدفع عن سنوات شبابي أيها العنين.

رفعت نظري إليها مندهشاً.

– لا يصرخ في وجهي. لاتصرخ. لا أطيق أن تصرخ في وجهي.

أنت لا تنجب. ألا تعلم ذلكّ؟! وما يهمني أن تسمي عنيناً أم اسماً آخر لا أعرفه؟ فتش لنفسك عن الفة التي تلائمك.

كنت على حق إذن. عرفت أنها ستصل الليلة إلي قمة جنونية لم تصلها قبلاً. لم يكن ذلك صعبا على كل حال؛ ولذلك وجب أن يبدأ بالعمل. تظاهرت، في طريق عودتنا، أن سجائري نفدت فقطعت سيل كلامها ونزلت قرب مقهى أعرفه. كان ذلك أمراً محتوماً ولا مفر منه.

خابر وأعطاهم الاسم والعنوان وقال لهم إن الحالة مستعجلة وخطيرة.

– .. حرمتني من كل شيء. الحرية والشباب والحياة. حرمتني من الحياة الطبيعية وجعلتني أعيش عيشه الحشرات. عيشة الحشرات أقول لك.

نأكل وننام، نأكل وننام. ثم تأتي بعد ذلك.. لا تنظر إليّ بحقد هكذا.. أيها الحقود الكريه.

ثم ألقت بقفازيها إلى طرف من الغرفة وبقيت تراقب سقوطهما:

– أنت تحقد لأن نفسك سوداء، وأنا لا أحب هذه النفوس. أنا أشعر أني نقية، صافية النفس بالقياس اليك. خذ مثلاً هذه الليلة التي أفسدتها عليّ.

كانت أمامي مرة أخرى، تقف ممسكة بالكرسي والمائدة اللامعة بيننا:

– .. أصررت أن نذهب إلى هذه الحفلة الملعونة، لأنك كنت ناوياً أن تثير أعصابي وأن تخرجني عن طوري فأخذت تمثل دورك السخيف الممجوج، دور العاشق الموله يتلك العجوز.

أردت أن أصحح أقوالها.

– وأنا ماذا أفعل، والسيد المحترم يظن نفسه كازانوفا! يغزو قلوب النساء مني ما شاء ذلك! قل لي، أيها المخبول أين سينتهي بك هذا الطريق! واسمع.. لا تقاطعني.. أليس الأولى بك أن تهتم بي قليلاً وتراعي مشاعري وتؤدي واجبك كزوج! نعم، واجبك كزوج على الأقل. لا أكثر ولا أقل. الشيء البسيط الذي تطلبه الزوجة من الزوج.. ألا يكون عنيناً، أغني أن يستطيع مساعدتها على الإنجاب

هذا هو ببساطة كل شيء.

رفعت نظري إليها.

– قل لي، أأنا محطئة! ها.. ها، أنت تسخر، أليس كذلك! تسخر مني. تسخر مني! أيها التافه، أنت تسخر مني! أنت.. أنت.

كانت تصرخ صراخاً لم أسمعه منها قبلاً وهي ترفع رأسها فجأة إلى السقف وتشير بذراعها اليسرى إلى لا مكان. لقد تخيلت مسبقاً حالها هذه. لا عتب أو لوم إذ قام بعمله ذاك. ليس باستطاعته أمام الاختيار، إلا أن يدع الآخرين يموتون. لا مناص من ذلك.

– وأنا التي قبلت بتواضع أن تعيش معه دون أن أطلب شيئا.. ياربي الرحيم؛ وها هو يطعنني من الخلف.. أخ!

أنت كأنها طعنت حقيقة، ثم توقفت على جهة:

– يطعنني من الخلف.. لماذا؟ بعد كل ما عملت له؟ لماذا؟

وضربت المائدة بكفها عدة ضربات قوية. كانت تصرخ وشعرها الأسود المصبوغ ينتشر باضطراب حول وجهها، حين طرق الباب فجأة.

قفزت بخفة وركضت أفتحها دون انتظار. كانا اثنين، طويلين متيني البنيان. سألا عنها بعد أن تحققا من العنوان. أشار إليها. كانت تقف كأنها دمية ممزقة. حذرهما منها. قال إنها تخفي سكيناً في ملابسها أسرعا وأحطاطا بها ولويا ذراعيها بشدة، بقيت تتطلع بذعر إلي. دفعها أمامها ملابسها. أسرعا فسارت تجرجر قدميها بينهما وتدير عينيها بيننا ملجومة اللسان.

وصلوا الباب فابتعدت عنهم ووقفت وسط الصالة. كنت أغالب شيئا ما في نفسي يجعلني مسرورا.

عادت إليها قوتها حين إراد إخراجها من الشقة. نفضت ذراعيها منها بقوة، لكنها لم تستطع الخلاص وارتطم رأسها بالحائط القريب.

ثم تشبثت بإطار الباب لحظات، بدا عليها كأنها فهمت. نظرت إلي:

– ظننت أنك أرسلت لي أزهاراً!

سحباها بعنف وأغلقا الباب بعد أن أعطاني أحدهما عنوان المشفى.

كنت أقف وسط الصالة الهادئة، خافق القلب، لا أنتظر شيئا.

أكان علمه صائبا؟ وكيف يمكنني أن أعرف حقا؟

باريس ١٩٨٤

ذاك النداء

قبل أن أهم بعبور "افني فكتور هيكو" رأيت الورقة النقدية مرمية على الأرض قرب الرصيف، نصفها غارق في الماء الجاري والنصف الآخر ملتصق باليابسة. انحنيت دون تردد وأمسكت بها بين إصبعي ثم حشوتها بسرعة في جيبي ونكصت على أعقابي. لم يكن من التعقل أن أستمر في نفس الاتجاه.

كنت أقصد عبور الشارع من النقطة المقابلة للينبوع، حيث اعتدت أن أغسل وجهي واملأ قنينتي الصغيرة ماء. تراجعت وسلكت شارع "ديفرينوا" ومن بعده شارع "لافيزاندري"، كان من الضروري أن أقوم بهذه الاستدارة الطويلة نوعاً ما، تحاشياً لأية التباسات غير منتظرة. كانت ورقة نقدية من فئة خمسين فرنكا. كنت أتلمسها وهي في جيبي، وأحاول أن أحتفظ بهدوئي.. وصلت مفترق الطريق ودخلت "افني فكتور هيكو" من نهايته. قصدت أولاً موقف الباص وتلبثت فيه قليلا. لم أتلفت ولم أخرج يدي من جيوبي. ثم دخلت مقصورة التليفون ورفعت السماعة؛ كانت الآلة تشتغل بصورة عادية. خرجت

سائراً ببطء ووقفت أمام تمثال "فكتور هيكو" من صنع "رودان"، كأنني أتأمله. كنت أحس، تحت ظلال الأشجار العالية، بارتياح نفسي.

كلنت ورقة نقدية لا ريب فيها من فئة الخمسين فرنكا. ليس من الأمور الطبيعية أن أعثر على ورقة نقدية من هذه الفئة، مبلولة كانت أم يابسة. ومع ذلك، فقد تم الأمر ويجب ان أتقبله بهدوء. كنت عائدا من غابة "بولوني" بعد أن قضيت عدة ساعات، مسترخيا في إحدى الزوايا المنعزلة. اعتدت أن أقضي الظهر من أشهر الصيف، في هذه الناحية من باريس. لا يهم أن يسقط المطر أحياناً، لقد عرفت كل شبر من الغابة، ويمكنني أن أجد دائما زاوية تحميني من القطرات المتساقطة.

هذا اليوم لم أنم جيداً. مرت خيول كثيرة وأحدث الفرسان ضجة لا داعي لها، فلم أستطع النوم. بقيت مسترخياً بين الجذوع، أتطلع إلى السماء من خلال الأغصان والأوراق الخضراء. لم يهمني كثيراً ألا أنام، مادمت قد ارتحت بعض الوقت. القيلولة تصير ضرورة لا مندوحة عنها، بعد الليالي التي لا أجد فيها مأوى أرتاح فيه. عندئذ، أتغلب على ما يخلفه سهر الليل من إرهاق، بنومة ما بعد الظهر هذه.

وفي الصيف، عادة، لا يعود الملجأ الليلي مشكلة لسكان باريس من أمثالنا ممن لا دارة لهم. أنا منسكان باريس لا يملكون، هذه الأيام، داراً أو شقة متراً مربعاً واحاً أتقرفص فيه بهدوء. ولقد اعتبرت ذلك أمراً عابراً لأسباب كثيرة لا أتذكرها كلها الآن. وعلى كل حال، فلقد مضى الزمان الذي كنت أحاول فيه الاهتمام بمثل هذه الشؤون.

كنت أشعر بارتياح وأنا أقف هكذا أمام ثمثال (فكتور هيكو) من صنع (روادن)، واضعا يدي في جيوب معطفي الأسود، أتحسس ورقة الفرنكات الخمسين. فارقتي خفقان القلب وعاد إليّ اطمئناني وصفاء فكري. صفاء الفكر هذا، حالة مهمة يجب الالتفات إليها. إذ، حتى حين يكون الإنسان في وضع خاص من انعدام القدرة على شراء نصف (باكيت) بفرنك وخمسة وثلاثين سانتاً، فإن باستطاعته أن يستعين بما تبقى له من صفاء الفكر كي يتدبر أمره بقطعة من الخبز لم تفسد بين ثنايا القمامة. هنا، على الخصوص، لن يهتم أحد بأن يسألك عما تعمل. أدخل رأسك في صندوق القمامة ساعات، وكن متاكداً أن أحدا لم يرك.. إنهم جديرون بالإعجاب حقاً، هؤلاء، لعدم اكتراثهم المطلق. قل لهم، مثلا إنك تموت جوعاً، فترى أحدهم يرفع

كتفيه بعدم اهتمام، وترى الآخر يبسم لك.. مهنئاً ربما! من اللياقة إذن، مادمت على الهامش، أن تفيد من وضعك هذا.

هكذا استعرت مظهر الكبرياء والتذمر، وحاولت أن أجعل من صفاء فكري شيئا بعيدا عن التلاشي.

الآن، على سبيل المثال، أنا أحتاج أن أقرر ما أعمل بهذه الفرنكات الخمسين. أنا، معها فقير وغني. كل أموال العالم تجعل من الإنسان فقيراً وغنياً في نفس الوقت. هذه قاعدة لعينة معروفة، وأنا لا أشذ عن القواعد الإنسانية، يمكنني إذن أن أقسم الخمسين فرنكاً على ثمن نصف (باكيت) فيكون الحاصل قريبا من الأربعين.. سبعا وثلاثين كما أظن. عند ذالك، وخلال سبعة وثلاثين يوما سأستطيع، دون تعب، أن أتقوت بقطعة الخبز هذه مع الماء. وهو ما معناه، أن أبقى جائعاً طوال هذه الفترة، ولكن دون أن اقترب من الموت. غير أني اليوم على حال لا تقبل بمثل هذه التخريجات المنطقة الجوفاء، لأني أريد آكل وأشبع بالحدود التي تمنحني إياها هذه الفرنكات الطيبة. لذلك صممت بحبور، وانا أمام ذراع الشاعر العارية، الممتدة عشوائياً لا مكان، صممت أن يكون طعامي، الليلة، دجاجاً مع بيرة مثلجة.. ثم بعض الحلويات.. ليس هذا جنونا.. مادمت أملك الثمن.

الجنون هو أحلام اليقظة: أن تحكم أنك تأكل كذا وكذا وتشرب كذا وكذا تعقبه بكذا وكذا من الفواكه والحلويات، فيزداد جوعك ضرورة ويبدأ فكرك يفقد صفاءه. وهذه هي الطامة الكبرى. إذن، كما قلنا، قطعة دجاج ولتكن من الصدر، أعني اللحم الأبيض، مع كأس بيرة باردة، تعقبهما الحلويات. أعرف مطعماً في الحي اللاتيني يمنح مثل هذه العجائب أقل من ثلاثين فرنكا، إنه مطعم (فري ـ تايم) للأكل السريع. أية تسمية غريبة!

تحركت ببطء آخذاً "آفني هنري مارتن" صرفت النظر هذا المساء عن الاغتسال بماء الينبوع. أحببت هذه العملية منذ الأزل. أقف أمام حنيفة الينبوع هنيهات. إنه يقع على طرف من الحديقة الصغيرة التي يرتفع في جهة منها تمثال (لامارتين). ثم أشمر عن ساعدي وأخرج قنينة الماء النعدني الفارغة فأضعها جانبا على الأرض. أبدأ بعد ذلك بغسل يدي وقسماً من ذراعي، وأفركهما جيداً. ثم أملً القنينة ماء زلالاً وأعيدها إلى مكانها. بعد ذلك، أغسل وجهي طويلاً وأبلله با الماء، يالله.. كم تنعشني هذه القطرات البراقة ذات الرائحة العشبية الطرية!

هذه العملية الإنعاشية قررت أن أصرف النظر عنها اليوم وأنا في سبيلي إلى الحي اللاتيني، لن أستقل المترو من محطة "ري ده لابومب" القريبة. إنها محطة سخيفة بتركيبها. موظفو المترو يجلسون على الجانبين كأنهم على استعداد لضبطك وأنت تخالف! وأنا، بصراحة، لا أحب هذا. ليس هو الخجل، على كل حال.. إنما هي الراحة هي الراحة التي أنشدها حتى وأنا أخالف، الراحة في الاندساس بين أولئك المخالفين الكثر في محطة المترو الكبيرة (تروكاديرو). ومن هذه المحطة. التي تأكدت أن تلفوناتها العامة تعمل كلها بانتظام، يمكنني أن اتجه رأسا إلى محطة (دنفير روشرو) الضجة والسكاري وامفتشين.. آنذال يمكنك أن تصل إلى أي مكان تشاء بأقصر وقت. حتى في الضواحي الباريسية، الأمر لا يختلف. قمت بنزهات بديعة في حدائق (سو) والمنطقة المجاورة لها، إلا أن الناس خارج باريس فضوليون بعض الشيء فتركت هذه النزهات.

بعد (افني هنري مارتان) يتغير اسم الشارع إلى (أفني جورج مانديل). إنهم.. على كل حال مالنا وهذا.. إنهم يتذكرون رجالاتهم، هذا هو كل شيء. وهم لا يتركون فرصة تسنح دون أن يذكروا الآخرين بأنهم يتذكرون رجالهم، العظام وأشباه العظام، وأنا أحب ذلك منهم.

ولكن الإصرار ليه يزعجني، لا أدري لماذا.

كنت أسير بخطوات بطيئة، تاركا لأفكاري التجوال ماشاء لها ذلك، مقتصداً بقواي في نفس الوقت. إنه المنحنى الصحي كما أعتقد. أن تمشي الهوينا وبصورة مستقيمة وليس على غير هدى. أنا لا أسير على غير هدى. ضد الضالين في هذا العالم، ضد أصحاب الضلالة، سواء أكانوا على حق أم؛ إنهم خطر على راحة الآخرين، لأنهم ينقلون إليهم ضلالتهم.

لكن كل هذه الأمور لا تهمني الآن، خاصة أنا أقترب من محطة (تروكاديرو) وسأدخلها مع الداخلين، مسرعا مثلهم واضعا يدي في جيب معطفي. إلا أنني لن أستمر في اتباع رهط الداخلين إلى نهاية المطاف، إذ سأنحرف عند أول مدخل نحو ممر ممنوع.

تسحرني هذه القطعة الحمراء (المرور ممنوع) لأنها تعني المرور بدون تذكرة؛ ولست فاعلاً شيئا لا يفعله الكثيرون. أعوذ بالله. أنا مثل بقية المخالفين الباريسيين. لا أكثر ولا أقل. هم يجتازون الممر الممنوع وأنا ألاحقهم، وهكذا نصل، سعداء، رصيف القطار دون أن ندفع ثمن التذكرة. أعني دون نضع التذكرة في الآلة التي تسمح لنا

بالمرور من بعد ذلك باللمهانة! يضعون آلات في كل مكان تتحكم في مصائرنا. هذا هو آخر الزمان.

في المترو، أتخافى ما أمكن في زاوية من العربة، بعيداً عن العيون إنهم في الحقيقة، لا يهتمون بك هؤلاء الجالسين معك، ولكنهم يقتلونك فحصاً بنظرات ثاقبة. كأنك الوحيد الذي يرتدي معطفاً أسود في شهر تموز. وهم لن يصدقوا أو يأخوا بالاعتبار أية حجة تدلي بها إليهم. ولن يقبلوا أي عذر. المهم عندهم، وبالدرجة الأولى، أن يحتقروك.. أن يظهروا لك احتقارهم الصامت. حسناً، أنا لن أتمرد، مثلما يفعل بعض الزملاء. انا أواجههم بموقف بارد شائك، يحوطه الغموض بحيث لا يمكنهم أن يعرفوا أكانوا محقين بعملهم هذا أم لا. وأنا أعمل ذلك بصفاء فكر، زيارة في الدقة.

بعد ذلك، خلال الرحلة، تأتيك قضية تبديل القطار من أجل تغيير الاتجاه، وهذه أسخف الضرورات التي يجب أن ننحني لها. وأنا سأنحني لها بالتأكيد، ولكن ليس باقتناع. أقول فقط، ليس باقتناع.

وسخافة هذه الضرورة غير المقنعة، لا تعادلها إلا سخافة أخرى هي وجوب الاحتفاظ بالتذكرة وإبرازها عند المغادرة. كيف يمكن أن

يفهم هؤلاء الناس أن ليس من المنطق في شيء أن تطلب من شخص دخل المترو بدون تذكرة، أن يبرزها عند الخروج؟

لذلك اضطررت، من باب تقديم البرهان فقط على سخف منطقهم أن أقوم بحركة معقدة لا جتياز العمود الحديدي.

كانت الساعة حوالي الثامنة والشمس تملأ السماء، وأشجار حديقة (لكسمبرك) مشتعلة الرؤس بحمرة نارية. عشقت هذه الحديقة.. هذا الاتساع الأخضر، أول ما جئت باريس؛ ثم تغلغل حبها في قلبي بعد ذلك، حين تنزهنا سوية بين الأشجار السامقة وجلسنا على حافة الحوض ذي الأسماك. ماؤه أزرق مخضوضر، تسبح فيه تلك السميكات الحمراء وأغصان الشجر متدلية حولنا، والتمثال يمد ذراعه البيضاء. ولكم كان يحلو لنا أن نضيع ناشيين هنا وهناك!

إلا أن الوقت لن يسمح لي اليوم، وأنا على مبعدة أمتار من الدجاج والبيرة والحلويات، إلا بمسيرة قصيرة حول مقصورات التلفون الزجاجية الثلاث. شيء رائع، غاية في الروعة، هذه المقصورات. تجمع بين الدقة في التركيب ومتانة العمل. لم تتعطل تلفوناتها مطلقاً، شيء مذهل. أما تلك الآلة التعيسة الموضوعة في ساحة (ادموند

روستان) القريبة فحدث عنها ولا حرج ومن الخير لمن ينتظر نداء أن ينساها تماما.

أمام مطعم (فري _ تايم) للأكل السريع، رقم ٣٣ بولفار (سان مشيل) توقفت برهة أتأمل الداخلين والخارجين والجالسين على الجهتين وصفوف المنتظرين أمام محلات البيع. تلمست الورقة النقدية فو جدتها مبللة قليلا، لن يتعرض.

– هي.. بيبير!

التفت غاضباً؛ كنت غاضيا حقاً. كان هو ذلك الرقيع "أرمان".

مكدي باريسي عتيق جدا بحيث لا تعرف لماذا لا يموت. حييته باشمئزاز.

كان يعرفني بالطبع. لا أتذكر متى أعطيته زجاجة خمر. نسيت كل ما يخصها ولم ينسها هو. السخيف، تراه يعترف لك بالجميل بشكل مزعج.

– كيف حالك؟

شكرته بهزة رأس.

– لم نرك منذ زمن. ماذا تعمل؟

هززت رأسي مرة أخرى. كانت رائحته مريعة. استمر:

– ماذا حل بك ؟ أجائع هكذا بحيث لا تستطيع الكلام؟

ابتسمت باشمئزاز. هتف فجأة:

– أول أمس، أتعلم. كنا جماعة على "السين"، أنا و..

– لا يهمني ذلك.

– أنتظر. كلا، إنه يهمك. لقد سمعنا تلفونا يرن من بعيد.

أترى؟ تلفوناً يرن من بعيد، فتذكرناك.

كنت خافق القلب وأنا أتركه مبتعدا بسرعة.

– هي، بيبير. اسمع أيها العراقي، لا تغضب. سأعيدك إليك يوما قنينتك اللعينة. كانت خمرا رديئة على كل حال.

اسمع ..

لم ألتفت، لم ألتفت بالتأكيد. كنت مضطربا، أسير ببطء نحو ساحة "السوربون". لم ألتفت لأرى هذا العجوز الذي أراد أن يهينني.

إنه، والكل معه، لا يستحق التفاته عطف أو شفقة. ماذا يستطيع أن يفهم وهو في مثل هذا العمر.. في مثل هذا التردي الفكري والأخلاقي؟ إنه ديك هرم غبي. كلا، أنا لا أريد الانتقام منه. إنه أفضل من ديك بالطبع، ولكنه يشرب أسوأ من سمكة وهو يخلط الجد بالهزل لغير سبب. يخلط كل شيء في الحقيقة ويظن ذلك رؤيا خاصة به وحده. لعله أراد، من يدرى، أن يقول لي إنني عزيز عليه وعلى بقية الزملاء بدرجة أنهم تذكروني بحادثة لها علاقة بحياتي. هذا هو كل شيء، إذا أمكن أن يقال ببساطة.

كانت ساحة (السوربون) مزدحمة، فاستدرت نحو شارع (شامبوليون) الصغير، الرقيق. أسير فيه برفق، أحب حجارة وزاوية وباب فيه؛ شارع فريد من نوعه، يخلف فراغاً في من يغادره. كنت آتي إلى دور السينما الصغيرة المتراصة على أحد جوانبه. كان ذلك عصراً ذهبياً غريباً في قدمه. تأكل جيداً، وأثناء الوجبة تختار فيلماً لتشاهده بعد ذلك. دون تعقيد. تدفع نقوداً وتدخل السينما لتستمع بمشاهدة فيلم يهز النفس هزاً، حتى يمكن أن يبكيك.

البكاء تأثراً من فيلم سينمائي.. من صور تتلاحق عن أناس لا نعرفهم.

أليس هذا ترفاً؟ ولكن البعض يقدر عليه.

عدت إلى (بولفارسان – ميشيل) من الجهة الأخرى، فلم أجد العجوز موجوداً. هذه لم أتلكأ بل دخلت مطعم (فري _ تايم).

للأكل السريع، ووقفت، مثل بقية الناس، في آخر صف المنتظرين. كنت جائعاً، جوع الذئاب. بدا لي من تحسسي للورقة النقدية، أنها جفت تقريباً. حاولت أن أجمع أثمان طلباتي إلا أنني فشلت. ضيعتني هذه الكسور العينة التي يضيفونها إلى الرقم الصحيح، يظنونك غبياً لأن ٩٥ / ٧ فرنكاً هي ليست ثمانية فرنكات ولهذا تندفع كالمخبول لشراء البضاعة!

أزعجني، وأنا أقترب من البائعة الصغيرة، هذا الانطباع بالخوف التي طلبتها لعشائي! أخرجت لها الورقة النقدية الندية، وقدمتها لها بما أستطيع من لطف، فازداد خوفها. ما هذا؟

أمسكت بالصينية الخشبية، على كل حال، وحملت طعامي متعجلاً خشية أن أصاب بعدوى الخوف المجاني هذا. كنت، إضافة لذلك، مصدوماً بالرقم الذي ظهر على الرقعة المضيئة الحمراء ٦٥ / ٣١ فرنكا!

بالعشاء هنا، إلا أني أبعدت هذا الأسف بسرعة. كنت قد نويت أن أتمتع بوجبتي الاستثنائية هذه كما يجب.

لقيت في زواية بعيدة مائدة فارغة لأربعة أشخاص فسعيت إليها.

مررت بسلم يؤدي إلى الطابق الأسفل حيث، كما أعرف جيداً، المغاسل والتلفون. جلست إلى المائدة ووضعت الصينية أمامي. كنت ألهث قليلاً وبعض الانفعال يساورني. كان المطعم مزدحماً بكثير من الشبان والفتيات. سواح كما أعتقد يأتون من كل أنحاء الدنيا. لا عمل لهم غير السفر وقضاء الوقت.

أخفيت بعناية النقود المعدنية التي أعادتها لي تلك البائعة السخيفة. كانت لفافة الدجاج أنيقة حقاً، يستقر قربها كأس البيرة وبجانبه الحلويات "ديليس ده بوم"... حلويات التفاح.

كنت يابس الفم فأمسكت بالكأس ورفعته. أردت أن أرشف منه رشقة واحدة كما يفعل البشر هنا. تجرعت جرعة كبيرة أتت على نصفه تقريباً. أحسست بالبرودة في كل أنحاء جسمي وتراخت أعصابي حالاً..

بداية حسنة.

فتحت اللفافة وقسمت قطعة الخبز المحشوة بالدجاج إلى قسمين شعرت بحرارة الخبز الأبيض الذي انتشرت عليه حبات السمسم. قضمت بعد ذلك قضية كبيرة فاختلط في لحم الدجاج اللين بقطع الخس والطماطنة والخردل. تنفست بعمق، ثم تناولت كأس البيرة فجرعت منه جرعة كبيرة أخرى. ماألذها ! لا أظنني وجدتها لذيذة هكذا منذ سنوات!

– أتسمح؟

كان شيخاً سميناً مع امرأته، لا يرتدي غير قميص خفيف مزركش. هززت له رأسي. كانت مجاملة في غير محلها، فالمائدة ليست لي على كل حال، ويمكنها أن يجلسا دون استئذان. حتى دون أن ينظر إليّ.. إن أمكن. كانوا أمريكيين كما خمنت، يتكلمان الإنكليزية بطريقة خاصة غير مفهومة أبداً. رأيتهما بعد ذلك يترددان في الجلوس، ورأيت المرأة تبحث بعينيها دون جدوى، عن محل آخر. لن يهمني الأمر وسآكل طعامي كأنهما غير موجودين، إلا أنهما جلسا أخيراً، وخيل إلي أن نظرات المرأة كانت غريبة وأنها أغلقت أنفها، بشكل خفي، بأصبعها، ما أعجب هذا!

كيف ستتناول طعامها إن لم تعجبها رائحة المحل؟ أم لعلها.. من يدري، كل شيء ممكن مع هؤلاء السواح.

وضعت عيني فيما بين يدي وركزت انتباهي على الطعام اللذيذ. كانا يتهامسان ويرفعان طعامها ويخفضانه، ثم يتهامسان مرة أخرى ويعودان إلى رصف الطعام على المائدة. شعرت بدوار قليلا. كنت آكل دون اهتمام بأحد وبأكثر ما أستطيع من الجد. ترى هل شربت كثيراً من البيرة على معدة فارغة منذ أيام؟ وماذا يهم آخر الأمر.. كان الشيخ ذا وجه حليق أحمر، مليئا لحماً وصحة، وعيناه فاقعتي الزرقة. التقت نظراتنا فجأة.

توقف وهو يمسك بطعامه، ثم.. ثم سألني بالفرنسية:

- عفواً ياسيدي.. هل يسمون لحيتك هذه بالفرنسية.. فلفلاً وملحاً؟

استغربت. تملكني استغراب حقيقي. لم يبد لي أحمق بهذه الدرجة:

- إذا كنت تريد الدقة ياسيدي، فإنها بالأحرى ملح أكثر منها فلفلاً.

فانفجرت بضحكة عالية كلها مرح وغبطة وسعادة ومد ذراعه بغتة:

– أنا ويسكر، وهذه زوجتي، نحن أمريكيان، نزور فرنسا في شهر تموز من كل سنة تقريباً.

صافحته وبقيت ساكناً، آكل بهدوء ولكن دون أن أحس بطعم الأكل. اللعنة.

– أراهن أنك من إسبانيا.

– كلا.

– زوجتي هنا تقول إنك قد تكون بغير عمل.

كان رأسي يدور وشعرت بحرج.

– هذا صحيح.

– آه.. أنت إسباني إذن؟

عاد يأكل.. كانت في عينيه الباسمتين، بادرة غامضة من التفاهم والتعاطف والإخلاص، وكان يمضغ طعامه سعيدا. أهي البيرة، مرة أخرى؟

– كلا ياسيدي. أنا من العراق.

– آه.. العراق!

بلع لقمته وشرب من كأسه:

– بلاد ما بين النهرين؟! ماذا تعمل هنا يا صاحبي؟

شربت أنا أيضا ما تبقى في قعر كأسي.

– لا أعمل شيئا خاصا. أنا، في الحقيقة، منذ سنوات وسنوات.

أنتظر.

– وهل حالك على ما يرام؟

كانت زوجته تأكل بصمت.

– كما تراني؟

كيف تعيش؟ اسمح لي فضولي هذا.

– أعيش؟ أنا على هامش الزمن أتحاشى المكان، وعلى هامش المكان أتحاشى الزمن. أترى؟ وهل تظن هذه حياة أو عيشا سوياً؟

– لا أفهمك بسهولة يا صحبي. ولم كل هذا التعقيد؟

كنت منتشياً ومسرورا لأنه لا يفهمني بسهولة، وكنت في غاية الجد.

– أعيش هكذا منذ سنوات كما قلت لك. لقد جئت لأبقى شهرا فبقيت أعواما لا تنتهي.

– أأنت وحيد؟ أليس لك أهل أو قارب؟

– آه.. هذا شيء آخر. لقد اتصلت بي زوجتي تلفونياً منذ. . في الحقيقة.. منذ وقت طويل.

كنت أتعثر بعض الشيء في كلامي.

– هذا حسن.. ولكن هذا شيء حسن جداً. والآن؟

– الأن ؟ لا أحد يتصل بي. أنا أنتظر نداء آخر منها.

– حسن جداً. نداء آخر..؟

كان يتكلم بفم محشو بالطعام.

– نعم. قالت لي إنها ستخابر مرة أخرى. أتظنها ستخابر؟

– لم لا؟ لم لا؟ ما المانع؟

– هذا ما أظن أنا الآخر. المشكلة..

توقفت قليلا.

في ذلك المساء الخريفي الحزين، ما قبل التاريخ، كنت حالساً إلى مكتبي أطالع، حين رن جرس التلفون رنيناً خاصا. كانت هي على الجانب الآخر. عرفت صوتها رغم بعد المسافة واضطراب حالي. سألتني أأعرفها؟

فكدت أبكي، ثم سألتني عن آبائنا وعما جرى لهم، وهل أنا بخير وهل أتذكرها. حدثتها، مرتجفاً، عن وضعي الجديد وعن الحياة التعيسة بعدها وسألتها أين هي الآن. لم تجب وعدتني أن تخابر مرة ثانية. كان صوتها يخفي الكثير من رنات البكاء. وهكذا، منذ ذلك الوقت القديم، أنتظر نداءها. بعت كل شيء كي أبقى هنا، ولم آسف. لكني شقيت حين طردوني من الشقة وقطعوا خط الهاتف.

– ما المشكلة؟ لا بد أن تتصل بك مرة أخرى.

– هذا صحيح.

– للا تقلق. لا تقلق أبداً يا صاحبي. كل جيداً واغتسل ونم طويلاً ولا تقلق. أهي في بلدك الآن؟

– كلا.

آه.. هي في فرنسا إذن، كما أخمن؟

– كلا.

– أراهن أنك تعبث معي.

كان الصوت صوتها بالتأكيد. قد أخطئ بكل شيء، إلا في معرفة صوتها.

– كلا، أنا لا أعبث، ولكن هل تعتقد يا سيدي أنني يجب أن أكف عن الانتظار لأن زوجتي توفيت قبل أن آتي إلى فرنسا؟

توقف عن الأكل. توقف الاثنان عن الأكل.

– ألم تقل إنها خابرتك؟

– نعم.

– كيف يمكن إذن.. أتعني أنها كانت.. أعني.. كيف يمكن؟

أردت أن أقول له إن الإمكان أو عدم الامكان لا يدخل دائماً في صميم حياتنا، لأن ما يحدث للبشر ليس من صنع أيديهم على الدوام، فهو بالأحرى لا يخضع لمنطقهم. وأنا، لذلك، لن أتراجع عن انتظاري لندائها؛ إلا انهما، الاثنين، هبا دفعة واحدة كمن لسعته أفعى، وتركا نصف طعامهما على المائدة، منصرفين بسرعة لا داعي لها وقبل أن يسمعا بقية كلامي. كنت دائخا بعض الشيء وأنا أتابعهما بنظري يختفيان.

اضطررت أن أجمع ما تبقى من الطعام في كيس كبير أحلمه معي.

كان زاداً مباركاً لأيام الجوع المقبلة، ولم يكن من التعقل في شيء أن أتركه ليرمى في سلال الزبالة.

خرجت غير مستاء من مطعم "فري _ تايم" للأكل السريع. هذه المطاعم لا تخلو من بعض الأكلات المناسبة ومن الرفقة اليبة أحياناً، إنما يجب الحذر عند اختيار الوجبة.

انتوني– فرنسا – تموز ١٩٨٥

الفهرس